الباب السادس

في ذكر شيخ التربية[1]

(١) فائدة مباركة: قال شيخ التربية الشعراني: الشيوخ نواب الحق تعالى في العالم كما كانت الرسل عليهم الصلاة والسلام في زمانهم، بل هم الورثة الذين ورثوا علم الشرائع عن الأنبياء غير أنهم لا يشرعون، فلهم حفظ الشرائع في العموم وما لهم التشريع، ولهم حفظ القلوب ومراعاة الأدب في الخصوص، وهم من العلماء بالله بمنزلة الطبيب من العالم بعلم الطبيعة، فالطبيب لا يعرف الطبيعة إلا بما هي مدبرة للبدن الإنساني خاصةً العالم بعلم الطبيعة يعرفها مطلقًا وإن لم يكن طبيبًا، وقد يجمع الشيخ بين الأمرين ولكن حظ الشيوخة من العلم بالله أن يعرف من الناس موارد حركاتهم ومصادرها، والعلم بالخواطر مذمومها ومحمودها، وموضع اللبس الداخل فيها من ظهور الخاطر بالمذموم في صورة المحمود، ويعرف الأنفاس، ويعرف العلل والأدوية، ويعرف الأزمنة والسن والأمكنة والأغذية، وما يصلح المزاج وما يفسده، والفرق بين الكشف الحقيقي والكشف الخيالي، ويعلم التجليات الإلهية في مواضع التفكرات حتى لا ينكر التجلي الأُخروي كما يقع لبعضهم، ويعلم التربية وانتقال المريد من الطفولة إلى الشباب إلى الكهولة، ويعلم متى يترك التحكم في طبيعة المريد ويحكم في عقله، ومتى يصدق المريد خواطره، ويعلم ما للنفس من الأحكام، وما للشيطان من الأحكام، وما تحت قدرة الشيطان ويعلم الحجب التي تحفظ الإنسان من إلقاء الشيطان في قلبه ويحول بينه وبين الإلقاء، ويعلم ما تكنه نفس المريد مما لا يشعر به المريد، ويفرق للمريد إذا فُتح عليه بين الفتح الروحاني، والفتح الإلهي، ويعلم بالشم أهل الطريق، ويميز من يصلح منهم للطريق، ومن لا يصلح، فهم أدباء الله عالمون بآداب الحضرة وما تستحقه من الحرمة، والجامع لمقام الشيخ أن يكون عنده جميع ما يحتاج إليه المريد حتى يؤهل للشيوخة، ومتى نقص شيء مما يحتاج إليه المريد في تربيته فلا يحل له أن يقعد في منصة الشيوخة، ومتى نقص فالذي يفسده هذا أكثر من الذي يصلحه كالمتطبب يعل الصحيح ويقتل المريض، فإذا انتهى إلى هذا الحدّ، فهو شيخ في طريق الله يجب على المريد حرمته، والقيام بخدمته والوقوف عند مراسمه، ولا يكتم عنه شيئًا مما يعلم أن الله يعلمه منه، فإن سقطت حرمة الشيخ من قلب المريد فلا تقعد عنده ساعة واحدة، فإن قعد لا ينتفع منه بشيء، فإن الصحبة إنما تقع المنفعة منها بالحرمة، فإن رجعت الحرمة ثانيًا في قلب المريد وخدمته انتفع به.

واعلم يا أخي أن الشيوخ على قسمين: الأول شيوخ عارفون بالكتاب والسنة، قائلون بها في ظواهرهم، متحققون بها في سرائرهم، يراعون حدود الله، ويوفون بعهد الله، قائمون بمراسم الشريعة، لا يتأولون في الورع، آخذون بالاحتياط، مجانبون لأهل التخليط، مشفقون على الأمة، لا يمقتون أحد من العصاة، يحبون ما أحب الله، ويبغضون ما أبغض الله ببغض الله، لا تأخذهم في الله لومة لائم، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر المجمع عليه، يسارعون في الخيرات، ويعفون عن الناس، يوقرون الكبير ويرحمون الصغير، ويميطون الأذى عن طريق الله وطريق الناس، يبدأون في الخير الأوجب فالأوجب، يؤدون الحقوق إلى أهلها، يبرون إخوانهم بل الناس كلهم، لا يقتصرون

وما يتبع ذلك من الإشارة إلى الشيوخ الذين ورثهم الشيخ ﷺ وفائدة تلقين الذكر وبعض ما قيل في الأسماء الحسنى والحضرة وما يتصل بذلك

فنقول: قد تكلم صاحب «الرائية» على شيخ التربية، وشرح الشيخ ﷺ شيئًا من كلامه، فأحببت أن أثبت ذلك هنا؛ لأن الكتاب موضوع لجمع كلام الشيخ ﷺ.

=

بالجود على معارفهم، جودهم مطلق للقريب والبعيد، والطائع والعاصي والشاكر والجاحد، الكبير لهم أب، والمثل لهم أخ، والصغير لهم ابن، وجميع الخلق لهم عائلة، يتفقدون حوائجهم، إذا عصوا سارعوا إلى التوبة بالحياء من الله، هيّنون ليّنون، رحمة لعباد الله ينظرون إلى الناس كأنهم يبكون، الهم عليهم أغلب من الفرح لما يعطيهم موطن التكليف، فهؤلاء هم الذين يُقتدى بهم ويجب احترامهم.

القسم الثاني من الشيوخ: أرباب أحوال عندهم تبديد ليس لهم في الظاهر ذلك التحفظ، فيسلم لهم أحوالهم ولا يُصحبون، ولو ظهر عليهم من خرق العوائد ما عسى أن يظهر فلا يعول عليه مع وجود سوء أدب مع الشرع؛ فإنه لا طريق لنا إلى الله إلا ما شرعه، فمن قال غير ذلك فقوله زور، ولا يُقتدى بشيخ لا أدب عنده لكن يحترم إذا كان صادقًا في حاله.

فعلم أن حرمة الحق تعالى في حرمة الأشياخ، وعقوقه وعقوقهم، فهم حجاب الحق الحافظون أحوال القلوب على المريدين، فمن صحب شيخًا يقتدي به ولم يقع منه احترام له، فعقوبته فقدان وجود الحق في قلبه، والغفلة عن الله وسوء الأدب، والباب عن غير الأدباء مغلق، ولا حرمان أعظم على المريد الصادق من عدم احترام الشيوخ؛ فإن مجالسة المريدين للشيوخ مع عدم الإيمان بأحوالهم سبب لنزع الإيمان من قلوبهم، فليكن الجالس معهم في حذرٍ فإن في مجالستهم خطر.

واختلف أصحابنا في حق المريد مع شيخ آخر خلاف شيخه، هل حاله معه من جانب الحق مثل شيخه أم لا؟ فكلهم قالوا: بوجوب حرمته عليه، وأطال بذكر الخلاف في ذلك.

ثم قال: واعلم أن المريد لا يقصد إلا الحق فإذا ظهر مقصوده حيث ظهر قال به وأخذه فإن الرجال إنما يُعرفون بالحق لا يُعرف الحق بهم.

واعلم أنه كما لم يكن وجود العالم بين إلهين، ولا المكلف بين رسولين مختلفي الشرائع، ولا امرأة بين زوجين، كذلك لا يكون المريد بين شيخين إذا كان مريد تربية، فإن كان صحبة بلا تربية فلا يباني بصحبة الشيوخ كلهم؛ لأنه ليس تحت حكمهم، وهذه تسمى صحبة البركة غير أنه لا يجيء منها رجل في طريق الله، فالحرمة أمثل في الفلاح، والسلام. [مختصر الفتوحات].

قال صاحب «الرائية»:

وَلِلشَّيْخِ آيَاتٌ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ فَمَا هُوَ إِلَّا فِي لَيَالِي الْهَوَى يَسْرِي

قال الشيخ ﷺ: ولشيخ التربية علامات ظاهرة، وهي أن يكون سالم الصدر على الناس، ليس له في هذه الأمة عدو، وأن يكون كريمًا إذا طلبته أعطاك، وأن يحب من أساء إليه، وأن يغفل عن خطايا المريدين، ومن لم تكن له هذه العلامات فليس بشيخ.

ثم قال صاحب الرائية:

إِذَا لَمْ يَكُنْ عِلْمٌ لَدَيْهِ بِظَاهِرٍ وَلَا بَاطِنٍ فَاضْرِبْ بِهِ لُجَجَ الْبَحْرِ

قال الشيخ ﷺ: مراده بعلم الظاهر علم الفقه والتوحيد؛ أي: القدر الواجب منهما على المكلف، ومراده بعلم الباطن معرفة الله تعالى.

ثم قال:

وَإِنْ كَانَ إِلَّا أَنَّهُ غَيْرُ جَامِعٍ لِوَصْفَيْهِمَا جَمْعًا عَلَى أَكْمَلِ الْأَمْرِ

فَأَقْرَبُ أَحْوَالِ الْعَلِيلِ إِلَى الرَّدَى إِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُ الطَّبِيبُ عَلَى خُبْرِ

قال الشيخ ﷺ: أي: وإن وجد الشيخ إلا أنه وجد غير جامع لوصف العلم الظاهر والباطن جمعًا كاملاً، فأقرب أحوال المريد معه إلى الهلاك.

وقوله: «**إذا لم يكن منه الطبيب على خبر**» يريد أن الشيخ الذي ليس بجامع لقصور علمه لا يعلم ما يضر المريد، فأقرب أحوال المريد معه إلى الهلاك.

قال سيدي منصور: إذا كانت صحبتك مع شيخ كامل فاحرص أن تفنى عن مرادك في مراده، واطلب ألّا تعيش بعده، فسلامتك مع غيره غريبة، ووصلك أغرب وأعجب من كل شي، ثم قال:

وَمَنْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا الْوُجُودُ أَقَامَهُ وَأَظْهَرَهُ مَنْشُورُ أَلْوِيَةِ النَّصْرِ

فَأَقْبَلَ أَرْبَابُ الْإِرَادَةِ نَحْوَهُ بِصِدْقٍ يَحِلُّ الْعُسْرَ فِي جَلْمَدِ الصَّخْرِ

وَآيَتُهُ أَنْ لَا يَمِيلَ إِلَى هَوًى فَدُنْيَاهُ فِي طَيٍّ وَأُخْرَاهُ فِي نَشْرِ

قال الشيخ ﷺ: ومن لم يكن من الشيوخ أثبته شيخه من المشيخة بالإذن له فيها؛ لكونه مات عنه قبل أن يكمله، ولكن أثبته فيها الناس وأظهروه فيها منشورة أعلام النصر، بحيث نصر الله به أعلام المريدين على نفوسهم وهواهم وشياطينهم، فأقبل بسبب ذلك النصر أرباب الإرادة وأهل الهمة الذين يرغبون في القرب إلى الله ﷻ بصدق يخرق الصخور، فهذا شيخ مقبول أيضًا يريد؛ لأنه يحتمل أن يكون تكمل على يد رجال الغيب، أو أنه يأخذ على يد سيدي أحمد الخضر.

وقوله: «**وآيته**» أي: علامته الظاهرة الدالة على استحقاقه رتبة المشيخة ألّا يميل إلى هوى في تربيته بما يبدو من مشاهد حاله، وتكون دنياه عنده في استتار وآخرته في انتشار.

فقوله: «**فدنياه في طي**» كناية عن الزهد فيها والإعراض عنها.

كما أن قوله: «**وأخراه في نشر**» كناية عن الرغبة فيها والإقبال عليها.

ثم قال:

وَإِنْ كَانَ ذَا جَمْعٍ لِأَكْلِ طَعَامِهِ مُرِيدٌ فَلَا تَصْحَبْهُ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ

قال الشيخ ﷺ: معنى كلامه إن كان شيخ التربية يجمع الناس لأكل طعامه فلا تتبعه ولا تصحبه يا مريد أبدًا، يريد والله أعلم إذا كان يجمع الناس لأكل طعامه ولا أثر له فيهم بفتح، فإن هذا يصير الاجتماع عليه لأجل طعامه لا لأجل الله ﷻ أمّا إذا كان يجمع الناس عليه ليجمعهم على الله وله مع ذلك طعام فلا بأس بصحبة هذا واتّباعِهِ.

ثم قال:

وَلَا تَسْأَلَنْ عَنْهُ سِوَى ذِي بَصِيرَةٍ خَلِيٍّ مِنَ الْأَهْوَاءِ لَيْسَ بِمُغْتَرِّ

قال الشيخ ﷺ: المعنى لا تسأل عن شيخ التربية إلا من جمع ثلاثة شروط:

- أن يكون ذا بصيرة.
- وأن يكون خاليًا من الأهواء.
- وألّا يكون مغترًّا.

فكونه ذا بصيرة: احترازًا من السالك المحض الذي ليست له معاملة القلوب، فإنه

إذا سئل عن شيخ التربية يحيل على سالك آخر هو أكثر منه اجتهادًا، وأدوم على الأوراد، وأحفظ للوظائف؛ لأنه يرى أن هذا المقام هو غاية الطريق، وأن التفاوت بين أهله إنما هو بالقوة والضعف، والسالك المحض ليس أهلاً للمشيخة ولا يبلغها.

وكونه خاليًا من الأهواء: احترازًا من صاحب التعصب ولو كان ذا بصيرة، فإن المتعصب للشخص إذا سئل عن شيخ التربية ربما حال عليه لأجل التعصب.

وكونه مغترًّا: احترازًا ممن لا يعرف اصطلاح القوم في وصف شيخ التربية، فإذا سئل عن الشيخ المربي ربما يحيل على المجذوب المحض؛ لما يرى معه من قوة المعرفة والاستهلاك في الحقيقة، والمجذوب المحض ليس أهلاً للمشيخة ولا يبلغها.

ثم قال:

فَمَنْ صَدِئَتْ مِرْآةُ نَاظِرِ فَهْمِهِ ... أَرَتْهُ بِوَجْهِ الشَّمْسِ مَنْ كَلَفِ الْبَدْرِ

وَمَنْ لَمْ يَكُنْ يَدْرِ الْعُرُوضَ فَرُبَّمَا ... يَرَى الْقَبْضَ فِي التَّطْوِيلِ مِنْ أَقْبَحِ الْكَسْرِ

قال الشيخ ﷺ: المعنى فمن صدئت عينه يرى السواد الذي في وسط القمر على وجه الشمس التي لا سواد فيها أصلاً؛ لانعكاس الحقائق في حقه؛ ومراده: إن من لم يكن ذا بصيرة فإنه يرى العيب في الشيخ الكامل فينفر عنه، ويرى الكمال في [السائل][1] فيدل عليه.

وقوله: «**ومن لم يكن يدري العروض**» أي: ومن لم يكن يعرف ميزان الشعر ربما يعتقد أن سقوط الخامس من عروض بحر الطويل هو من أقبح العيوب فيه، كذلك من لم يكن يعرف اصطلاح الصوفية في أوصاف الشيخ المربي ربما رأى الكامل فظنه مبتدئًا فنفر عنه، كما دل على المجذوب وهو لا يستحق.

* **قلت**: حاصل ما ذكره صاحب الرائية في هذه الأبيات: إن الشيخ إذا كان خاليًا من علم الظاهر والباطن، أو كان متصفًا بهما لا على الكمال، فإنه لا خير في صحبته، وإن من كان متصفًا بهما على الكمال وكانت فيه الآيات السابقة فإنه يشيخ، وهذا إذا أقامه شيخه في التربية وأذن له فيها حال حياته.

---

(١) في (ب): السالك.

وأمّا إن مات قبل ذلك ولم يكمل في زمان شيخه، فهذا إن ظهرت عليه أمارات الفتح وعلامات الخير، وأعرض عن الدنيا وأقبل على الآخرة، ووقع للمريدين الفتح على يديه، فهذا أيضًا يشيخ.

وأمّا إن لم يكن فيه إلا مجرد جمع الناس على طعامه فهذا لا خير في معرفته، وأنه لا ينبغي للشخص أن يسأل عن شيخ التربية إلا إذا جمع الأوصاف الثلاثة السابقة، فإن غيره ربما عكس الصواب.

ثم أشار صاحب الرائية إلى الآداب التي تجب على المريد في صحبة شيخ التربية، فقال:

وَلَا تُقَدِّمَنْ قَبْلَ اعْتِقَادِكَ أَنَّهُ مُرَبٍّ وَلَا أَوْلَى بِهَا مِنْهُ فِي الْعَصْرِ

فَإِنَّ رَقِيبَ الالْتِفَاتِ لِغَيْرِهِ يَقُولُ لِمَحْبُوبِ السِّرَايَةِ لَا تَسْرِ

قال الشيخ ﷺ: أي: ولا تقدمن على شيخ بقصد الدخول في صحبته حتى تعتقد أنه من أهل التربية، وأنه لا أحق منه بها في زمنه، وإنما وجب عليه ذلك؛ لأن الشيخ الذي يرى من مريده الالتفات إلى شيخ غيره يقطع عنه المادة، والمريد الذي يدخل في صحبة شيخ وهو يرى أن في الوجود شيخًا مثل شيخه أو أكمل [منه] يبقى متشوفًا إلى ذلك الأكمل في اعتقاده، فيراه شيخه متشوفًا إليه فيقطع عنه المادة، فلا يكون منتفعًا بالأول ولا بالثاني.

قال الشيخ ﷺ: وقد رأينا مثل هذا في زماننا كثيرًا، والله يكون لنا وليًّا ونصيرًا.

وقال صاحب الرائية قبل هذا:

وَمِنْ بَعْدِهِ الشَّيْخُ الَّذِي هُوَ قُدْوَةٌ يُلَقَّى مُرَادَ الْحَقِّ فِي السِّرِّ وَالْجَهْرِ

قال الشيخ ﷺ: ومن بعد مقام [التربية][1] ـ أي: من بعد تحصيله طلب الشيخ الذي هو مرب ـ فإنه مقدم على النفس في طريق الأحوال، وفائدته أنه يرى العبد مطلب الحق منه في ظاهره وفي باطنه.

قال الشيخ ﷺ: ولابد من شيخ يعرفك ويدلك على معرفة الشيخ، وكيف تلقاه

---

(١) في (ب): التوبة.

وتجلس معه، وإن لم يكن هذا فاعلم أنك مكسور لا طبيب لك ولو فعلت ما فعلت، والسلام.

ثم قال:

فَقُمْ وَاجْتَنِبْ مَا ذَمَّهُ الْعِلْمُ وَاجْتَلِبْ ... لِمَا خَصَّهُ بِالْمَدْحِ فَهْوَ جَنَى الدُّرِّ

قال الشيخ ﷺ: أي: إذا وجدت وأعطاك المولى الشيخ الذي يربيك فقم على خدمته، واعرف حق صحبته، واتخذه وسيلة إلى الله عسى أن تدرك معرفة الله ﷻ لكن يجب عليك مع ذلك أن تترك ما عابه الشرع من الأفعال الذميمة، وأن تكسب ما مدحه منها، فذلك هو جنى الدر، والدر في الأصل [هو] اللؤلؤ العظيم، وهو كناية عن التقوى.

والجنى: القطع هذا أصله، والمراد هنا الأخذ، فكأنه قال: إن اجتنبت المذموم شرعًا واجتلبت الممدوح شرعًا، فقد أخذت التقوى ووصلت إليه، نسأل الله أن يمن علينا بها، فإنها التي تنبني عليها أحوالك و[مقاماتك][1]. ثم قال:

وَإِنْ تَسْمُ نَحْوَ الْفَقْرِ نَفْسُكَ فَاطَّرِحْ ... هَوَاهَا وَجَانِبْهُ مُجَانَبَةَ الشَّرِّ

قال الشيخ ﷺ: وإن ترفع همتك إلى طريق الفقر ـ وهي طريق التصوف ـ فاطرح هوى نفسك فيما تختاره لنفسها من وجوه التعبدات وأنواع القربات دون أن يأمرها به الشيخ، وباعد هواها في ذلك مباعدتك للشر. يريد أن فلاح المريد فيما يختاره له الشيخ لا فيما يختاره هو لنفسه، وإن كان يختار هو لنفسه هلك.

* **قلت**: وكم مريد سقط من هذا الباب؛ لأن المريد قبل الفتح عليه إذا اختارت له نفسه الإكثار من النوافل والصيام والقيام، فربما كان ذلك لشهوة السمعة والرياء، فيصير عمله لغير الله ﷻ فإذا رحمه الله بالشيخ المربي وجمعه به فإنه يرى ذلك علة فيه فيريد نقله عنها، فإن ساعفه المريد وسبقت له العناية من الله تعالى دله على ما يليق به، وانتقل به إلى حالة مرضية عند الله تعالى، وإن لم يساعفه المريد وقال: جئناه ليزيدنا وجعل ينقصنا، وخسرت نيته في شيخه المربي، فهذا قد استحوذ عليه الشيطان، واستحكمت فيه علة الرياء والخسران، نسأل الله السلامة والعافية بمنه وكرمه آمين.

---

(١) في (ب): مناماتك.

ونذكر ها هنا قصة النفر من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ الذين جاءوا إلى دار النبي ﷺ فسألوا أزواجه عن عبادته ﷺ وقيامه وصيامه، فذكرن لهم عبادته ﷺ فاستقلوها ثم قالوا: لسنا كالنبي ﷺ فإنه عبد قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

ثم قال أحدهم: أمّا أنا فأصوم الدهر كله.

وقال الآخر: أمّا أنا فأقوم الليل كله ولا أنام.

وقال الآخر: أمّا أنا فلا أقارب النساء.

ثم ذهبوا، وجاء النبي ﷺ على إثرهم، فأخبرته عائشة ـ رضي الله عنها ـ بما رأت منهم وبما قالوا، فدعاهم النبي ﷺ وقال لهم: «**أَمَّا أَنَا فَأَخْشَاكُمْ لله، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، وَأَعْلَمُكُمْ بِهِ، وَإِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَقُومُ وَأَنَامُ، وَأُقَارِبُ النِّسَاءَ، وَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**».

وأنزل الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾ [المائدة:٨٧](١).

واختلفت الرواة في تعيين أولئك النفر:

فمنهم: من عدّ فيهم عثمان بن مظعون، وعبد الله بن مسعود، وأبا هريرة.

ومنهم: من عدّ فيهم سعد بن أبي وقاص.

ومنهم: من عدّ فيهم علي بن أبي طالب، وعبد الله بن عمرو بن العاص.

ومنهم: من عدّ فيهم أبا بكر الصديق ﷺ.

فانظر ـ وفقك الله ـ كيف ردهم ﷺ عن هوى نفوسهم في الإكثار من النوافل إلى ما أحبه لهم واختاره من التوسط في الأمور، وذلك أعظم شاهد لما يفعله الشيوخ مع المريدين الموفقين، وأمّا غيرهم فلا كلام عليه.

وقد رأيت بعضهم جاء إلى شيخ ﷺ وأراد أن يتخذه وسيلة، وكان على غاية الإكثار من العبادة، حتى إنه يقرأ في كل ليلة ختمة من القرآن، ويقرأ «دلائل الخيرات» في النهار

---

(١) أخرجه البخارى (٥/ ١٩٤٩، رقم ٤٧٧٦)، وابن حبان (٢/ ٢٠، رقم ٣١٧)، والبيهقى (٧/ ٧٧، رقم ١٣٢٢٦).

عدة مرات، ويصوم الدهر، ولا تلقاه إلا أصفر اللون كأنه من أهل القبور، فلم يزل الشيخ ﷺ ينقله من درجة إلى درجة، ومن حالة إلى حالة، حتى رده إلى مقام التوسط.

ثم قال له الشيخ ﷺ ذات يوم: كم من تعب أراحك الله منه يا فلان؟

فقال: جزاك الله عنا خيرًا يا سيدي، فإنما كانت أعمالنا رياء، فلغير الله كنا نعبد، وأراحنا الله من ذلك ببركتك.

وقال لي الشيخ ﷺ يومًا: إن هذه النوافل إذا لم يفعلها الشخص فإنه لا يحاسب عليها في الآخرة، وإن فعلها بنية أن يراه الناس ويمدحوه عليها فإنه [يعاتب][1] عليها في الآخرة، وتخلى دار أبيه عليها.

* **قلت**: لأن الرياء معصية.

وسمعته ﷺ يقول: إن [المحبوب][2] لا يخلو من الرياء والسمعة إلا إذا كان يرى في كل لحظة أن أفعاله مخلوقة له تعالى لا يغيب عنه ذلك في حالة الفعل، ومهما غاب عنه ولو طرفة عين وقع في الرياء والسمعة والعجب. ثم قال صاحب الرائية:

وَضَعْهَا بِحِجْرِ الشَّيْخِ طِفْلاً فَمَا لَهَا ... خُرُوجٌ بِلَا فَطْمٍ عَلَى الحِجْرِ وَالْحَجْرِ

قال الشيخ ﷺ: أي: ضع نفسك في حجر شيخك يُرَبِّك تربية الطفل [الصغير] في حجر أمه، فليس لنفسك قبل فطام التربية خروج عن حجر الشيخ وتحجيره.

فالحجر الأول: هو الحجر المعروف الذي هو مقدم القميص.

والحجر الثاني: معناه المنع ـ أي: منع الشيخ للمريد عما يريده ـ ومن هذا الثاني الحجر عند الفقهاء الذي هو بمعنى التحجير، فالحجر الأول-[بالفتح][3] - كناية عن نظر الشيخ وتصرفه، والثاني - [بالكسر][4] - كناية عن منعه للمريد ما لا يليق به، والله تعالى أعلم.

---

(١) في (ب): يعاقب.
(٢) في (ب): المحجوب.
(٣) سقطت من (أ).
(٤) سقطت من (أ).

ثم قال:

وَمَنْ لَمْ يَكُنْ سَلْبَ الْإِرَادَةِ وَصْفُهُ فَلَا يَطْمَعَنْ فِي شَمِّ رَائِحَةِ الْفَقْرِ

قال الشيخ ﷺ: ومن لم يكن من المريدين وصفه مع شيخه المربي له سلب الإرادة، فلا يطمعن أن يشم رائحة الفقر، نسأل الله الحفظ. ثم قال:

وَهَذَا وَإِنْ كَانَ الْعَزِيزُ وُجُودَهُ وَلَكِنَّهُ فِي الْعَزْمِ خَالٍ مِنَ الْعُسْرِ

قال الشيخ ﷺ: وهذا؛ أي: كون شم رائحة الفقر مرتبطًا بسلب الإرادة، وإن كان قليلاً لا يكاد يوجد ولكنه من حيث العزم عليه خال من التعذر والامتناع يريد، بل هو من حيث العزم عليه ممكن، والعزم هو التصميم على الفعل من غير احتمال.

ثم ذكر صاحب الرائية ما سبق من قوله: «**وللشيخ آيات**» الأبيات السابقة إلى قوله:

فَإِنَّ رَقِيبَ الالْتِفَاتِ لِغَيْرِهِ يَقُولُ لِمَحْبُوبِ السَّرَايَةِ لَا تَسْرِ

ثم ذكر بعده قوله:

وَلَا تَعْتَرِضْ يَوْمًا عَلَيْهِ فَإِنَّهُ كَفِيلٌ بِتَشْتِيتِ الْمُرِيدِ عَلَى هَجْرِ

قال الشيخ ﷺ: ولا تعترض على شيخك أبدًا، فإن الاعتراض على الشيخ ضامن لتشتيت المريد المعترض عليه عن ربه وعن دينه، مع تركه له وإعراضه عنه وطرده إياه عن صحبته، واليوم في البيت بمعنى الساعة والوقت الذي هو فيه، والاعتراض مقابلة القول بالرد.

واعلم ـ وفقك الله ـ أن هذه التفاسير لهذه الأبيات وجدتها مكتوبة على نسخة من الرائية بخط الشيخ ﷺ ولم أسمعها منه، ولكنها مكتوبة بخط يده الكريمة بلا شك ولا ريب، فلذا نسبتها إليه ﷺ مع أن علم الشيخ ﷺ أكثر، بل فوق ذلك كله، وودت أني أقرأ هذه القصيدة عليه ﷺ فإنا نسمع منه الأسرار الربانية والأنوار العرفانية في شرحها على عادته ﷺ.

وبقيت أبيات أخر متعلقة بهذا الغرض لم يشرحها الشيخ ﷺ فعزمت على كتبها من غير شرح، ثم بدا لي أن أكتبها وأشرحها بما تيسر من غير تطويل ولا إكثار.

قال صاحب الرائية:

وَمَنْ يَعْتَرِضْ وَالْعِلْمُ عَنْهُ بِمَعْزِلٍ يَرَى النَّقْصَ فِي عَيْنِ الْكَمَالِ وَلَا يَدْرِي

أي: ومن يعترض على الشيخ أو على غيره من أهل الطريقة وهو جاهل فإنه يرى الكمال نقصانًا، ويقلب الأمور وهو لا يدري، وأصل هذا البيت لصاحب العوارف، حيث قال: وينبغي للمريد كلما أشكل عليه شيء من حال الشيخ يذكر قصة موسى مع الخضر ـ عليهما السلام ـ كيف كان الخضر يفعل أشياء ينكرها موسى، فإذا أخبره الخضر بسرها يرجع موسى عن إنكاره، فما ينكره المريد لقلة علمه بحقيقة ما يوجد من الشيخ، فللشيخ في كل شيء عذر بلسان العلم والحكمة. انتهى.

و«الرائية» مختصرة من «العوارف» فهي ـ أي: العوارف ـ أصل للرائية.

وقال أبو الحسن الششتري ﷺ: ولا يعترض على المشايخ فيما يصنعون، فإنهم لا يتصرفون إلا عن إذن وبصيرة، وليس هم ممن يدخلون تحت جنس العالم الأول؛ أعني: عالم الحجاب الذين لم يتشوفوا إلى عالم الملكوت، ولم تفتن عقولهم إلا بالظواهر خاصة، بل هم معهم كائنون بائنون الحركات والسكنات، والأجسام والأقوال، واللسان والحروف المنطوق بها، كل ذلك متجانس مع العامة، وهم محجوبون عنهم من وجه آخر، فلا يعرف ما هم به ولا عليه إلا من كان منهم. انتهى والله أعلم. ثم قال:

وَمَنْ لَمْ يُوَافِقْ شَيْخَهُ فِي اعْتِقَادِهِ يَظَلُّ مِنَ الْإِنْكَارِ فِي لَهَبِ الْجَمْرِ

المعنى: إن الشيخ مصيب في فعله، فيعتقد أن الصواب في ذلك الفعل، فالمريد إن اعتقد الصواب مثل اعتقاد شيخه ربح ونجح، وإن خالف شيخه في اعتقاده اعتقد أن شيخه على خطأ في ذلك الفعل فإنه لا محالة يصير أمره إلى فراق شيخه، وعن فراق الشيخ كنى بلهب الجمر؛ أي: فإنه يظل من الإنكار في فراق الشيخ الذي هو كلهب الجمر.

قال محيي الدين بن العربي ﷺ: ومن شرط المريد أن يعتقد في شيخه أنه على شريعة من ربه وبينة منه، ولا يزن أحواله بميزانه، فقد تصدر من الشيخ صورة مذمومة في الظاهر وهي محمودة في الباطن والحقيقة فيجب التسليم، وكم من رجل كأس خمر بيده ورفعه إلى فيه وقَلَبَهُ الله في فيه عسلاً، والناظر يراه شرب خمرًا وهو ما شرب إلا عسلاً، ومثل هذا كثير.

وقد رأينا من يجسد روحانيته على صورة ويقيمها في فعل من الأفعال، ويراها الحاضرون على ذلك الفعل، فيقولون: رأينا فلانًا يفعل كذا، وهو عن ذلك الفعل بمعزل، وهذه كانت أحوال أبي عبد الله الموصلي المعروف بـ«قضيب البان» وقد عاينا هذا مرارًا في أشخاص. انتهى.

* **قلت**: وقد سبق في الباب الذي قبل هذا من كلام الشيخ ﷺ ما هو أبهر وأكثر من هذا، فراجعه، والله أعلم.

ثم قال:

فَـذُو الْعَقْـلِ لَا يَـرْضَى سِـوَاهُ وَإِنْ نَـأَى عَنِ الْـحَقِّ نَأْيَ اللَّيْلِ عَنْ وَاضِحِ الْفَجْـرِ

المعنى: إن من له عقل سليم وطبع مستقيم لا يرضى سوى شيخه، ويدور معه حيثما دار، وإن بَعُد الشيخ في ظاهر الأمر عن الحق بُعدًا بينًا كبعد الليل من الفجر، ويقول: إن للشيخ في ذلك وجهًا مستقيمًا عسى أن يطلعني عليه.

وسمعت شيخنا ﷺ يقول: إن المريد إذا عثر على شيء من هذه الأمور التي تصدر من الأشياخ وتخالف الظاهر وحسن ظنَّه بشيخه فإن الله تعالى يوقفه على أسرارها إذا فتح عليه.

* **قلت**: وقد سبق في كلامه ﷺ حكايات كثيرة عن المريدين الصادقين، فراجعه في الباب الذي قبل هذا، والله أعلم.

ثم قال:

وَلَا تَعْـرِفَنْ فِي حَـضْرَةِ الـشَّيْخِ غَـيْرَهُ وَلَا تَـمْـلَأَنْ عَيْـنًـا مِـنَ النَّظَـرِ الـشَّـزْرِ

النظر الشزر: هو النظر يمينًا وشمالاً، أو هو نظر الغضبان بمؤخر العين، أو نظر فيه إغضاء، فيه أقوال، والمناسب للأول أن يكون ذلك النظر لغير الشيخ.

فكأنه يقول: ولا تعرفن في حضرة الشيخ وهي محل جلوسه غيره، ولا تنظر في حضرته إلى ذلك الغير يمينًا أو شمالاً، فكأنه نهى عن معرفة ذلك الغير وعن الالتفات إليه. وأمّا المعنى الثاني والثالث للنظر الشزر فالمنظور إليه فيها هو شيخه المربي.

فكأنه يقول: ولا تعرف في حضرة الشيخ غيره، ولا تنظر إلى شيخك نظر غضب أو لا تنظر إليه نظرًا فيه إغضاء، كأنه يتجاوز ويغضي عن بعض ما فعله، لكن هذان المعنيان لا يناسبان السياق، فإن الكلام مع مريد صادق يدور مع شيخه حيثما دار.

فقيل له: إذا وصلت إلى هذا المقام فلا تعرف غير شيخك، وحينئذ فلا يناسب أن يقال له: ولا تغضب على شيخك، وإنما المناسب أن يقال له: ولا تلتفت إلى غير شيخك؛ لأن معنى هذا الأدب الجمع على الشيخ والاستغراق فيه، والانحياش إليه، والغيبة في سره؛ ليثمر له ذلك مع الشيخ أمثاله مع الحق ﷻ لأن كل أدب يستعمله المريد مع الشيخ فإنه يثمر له مثله مع الله ﷻ.

واعلم أن هذا الأدب لا يتأتى من المريد ما لم يكن له من الشيخ جاذب باطني، فإن محبة الشيخ للمريد إذا اتصلت أشعتها بالمريد تحوشه إلى الشيخ، وتحوطه من كل قاطع، فإذا دامت دام الاتصال، وإن انقطعت وقع الانفصال، حتى قال بعض الأشياخ لمريد له كان يلازمه كثيرًا، ويصلي معه الصلوات الخمس، ولا يغيب عنه في وقت من الأوقات، وظن أن ذلك من محبته في الشيخ لا من محبة الشيخ فيه.

فقال له الشيخ: أتحبني يا فلان؟

فقال: يا سيدي، ومن محبتي إليك وقع هذا الاتصال.

فقال له الشيخ: ستعلم.

فمن ذلك الوقت ما قدر على أن يصل إلى الشيخ حتى مرت عليه سنة كاملة، ولم يقدر على مشاهدة شيخه فضلاً عن ملازمته حتى عفا عنه الشيخ وسامحه.

وقال بعض الأشياخ يومًا لأصحابه: أتحبونني؟

فقالوا: نعم يا سيدي، ما عندنا أعز منك.

فقال لهم: وهل أحبكم أنا؟

فقالوا: لا ندري.

فقال: ما جئتم بشيء إنما سبقت محبتي لكم، فلما أشرقت أنوارها فيكم أنتجت محبتكم لي.

وأمّا أصحاب الشيخ ﷺ فمنذ عرفوه بردت قلوبهم من معرفة غيره وزيارته، وبعضهم يحس بالمنع من ذلك.

حكى إليّ بعضهم أنه جاء لزيارة الشيخ، ورافقه بعض الناس في الطريق، وطلبوا منه أن يذهب معهم لزيارة ضريح الولي الصالح سيدي قاسم أبي عسرية المشهور، فاستحييت وذهبت معهم والقلب بارد من زيارته، فلما وصلت إلى مشهده أصابني وجع في بطني، فبت ليلتي في ذلك المشهد والوجع يتزايد حتى شغلني عن الزيارة، ولما خرجت حين أصبح النهار من ذلك المشهد زال الوجع وصار كأنه لا شيء.

قال: وقع لي ذلك مرة أخرى فعلمت أن ذلك من الشيخ ﷺ.

* **قلت:** وعادة الشيخ ﷺ مع أصحابه أن يخبرهم بكل ما وقع لهم في الطريق إذا قصدوا زيارته، حتى أنه يخبرهم بالكلام الذي [يدور بينهم][1] ويخبر بما في بواطنهم، ووقع لبعض أصحابه ﷺ ما هو أقوى من هذا، وذلك أنه أحس بأنه يمنع من زيارة الصالحين قبل أن يعرف الشيخ بمدة تقرب من سبع سنين، فحصل له قنط وظن أن ذلك شقاوة وقساوة حتى جاء إلى بعض من يظن فيه الخير وقال له: يا سيدي، إن زيارة الصالحين تثقل عليّ.

فقال له: أنت هو الذي تثقل عليهم، فزاده قنطًا على قنطه، ثم قصد رجلاً آخر يظن فيه الخير، فشكا إليه ذلك فقال له: إن الولي قد يكون في حضرة الحق ﷻ فلا تكون روحه بأفنية القبور، وقد لا يكون في الحضرة فتكون روحه بأفنية القبور، فلعلك إذا جئت إلى ضريحه تجده في الحضرة فلا تكون روحه في قبره، حتى يحصل لك أنس به، وتحصل لك وحشة ويثقل عليك الحال.

فخفف عليه الأمر بهذا الكلام إلا أنه قال: إن كنت كلما جئت وليًّا أزوره لا أجد روحه بفناء قبره، فهذا عرق من الشقاوة فيّ إلى الآن لم يزل، فلما جمعه الله ـ تبارك وتعالى ـ مع الشيخ ﷺ لم يكن عنده أهم من أن يسأله عن هذا الأمر.

فقال: يا سيدي، إن زيارة الصالحين تثقل عليّ كثيرًا، وقد شكوت إلى سيدي فلان

---

(١) في (ب): يبرز منهم.

فقال لي كيت وكيت، وإلى سيدي فلان فقال لي كيت وكيت، فما تقولون أنتم، رضي الله عنكم؟

فقال له الشيخ ﷺ وقد نظر إلى مشموم من الورد معلق في [حانوت][1] فقال: إن صاحب هذا المشموم إن أعطاه لكل أحد يقلبه ويمسه بيده فإنه يفسد، ويحصل فيه ذبول ويبس، فالصواب في حقه والأليق به أن يمنعه من كل أحد.

قال: فعلمت أني ممنوع من زيارة غير الشيخ ﷺ قبل أن أعرفه بسنين.

ووقعت حكاية أخرى، وهي أن رجلاً من أصحابه ﷺ كان يعتقد الخير في بعض السادات، وكان يحبه كثيرًا ويزوره غالبًا، وله في صحبته ما يقرب من سبع سنين حتى خامرت محبته شعره وبشره، وعظمه ولحمه، حتى ملأت ذاته من قرنه إلى إبهامه، وكان يجزم بعد وفاة ذلك الشيخ لا يعرف غيره أبدًا؛ لأنه كان يعتقد أنه لا نظير له.

قال: فجمعني الله مع الشيخ ﷺ وبقيت معه ساعة، فما قمت من عنده حتى زالت تلك المحبة المتعلقة بذلك الميت بأسرها، وذهبت من سائر جسده بشراشرها، ولم يقدر من تلك الساعة على زيارة الشيخ في قبره أبدًا.

فسأل الشيخ ﷺ فقال: يا سيدي، رأيت عجبًا، كنت أحب سيدي فلانًا محبة لا تكيف ولا توصف، وكنت أجزم بأن غيره لا يحل محله أبدًا، فلما جالستك ساعة زال ذلك كله، والفرض أن ذلك الشيخ لم نتعرض له في تلك الساعة ولا جرى له ذكر ولا تكلمنا في الأسباب التي تمحو محبته.

فقال ﷺ: ذلك الشيخ صادق وولي من أولياء الله تعالى، وأنت في محبتك له صادق، ولكن المحبة التي بينكما ليس لها أصل تنزل عليه.

ثم ضرب له مثلاً فقال: كطفل صغير له أب، ففرق الله بينه وبين أبيه، فالتقطه رجل آخر وجعل يربيه، فكبر الولد ولا يرى غير الرجل الذي كان يربيه، فصار يقول له: أبي، ويحن له كما يحن الولد إلى أبيه، حتى بقي عنده نحوًا من سبع سنين، ثم جاء أبوه الذي هو ابنه من صلبه، فوجد الولد جالسًا بفناء دار الرجل الذي يربيه، فوقف أمامه ساعة ثم مر

---

(١) في (ب): دكان.

عنه، فإن عروق ذلك الولد تذهب كلها مع أبيه الذي هو من صلبه ولا يبقى شيء منها مع الرجل المربي له، فلا يحل أحد في قلبه محل أبيه من صلبه، وإن كان قبل ذلك يظن أن الرجل المربي [له] هو أبوه.

قال: فمحا والله بهذا المثال ما بقي في قلبي من رشوحات تلك المحبة وقطعها من جذرها. وهكذا حال الأكابر ﷺ حتى قالوا: إن المريدين بمثابة أكواب الحمام، فهي لمن غلب، فالشيخ الذي يغضب على مريده حيث يتركه ويذهب لغيره عاجز أو عقيم، فمن عجزه أو عقمه ذهب مريده لغيره.

وكم مرة يذهب الشيخ ﷺ إلى زيارة بعض الصالحين فيخرج معه جماعة من أصحابه ـ وفقهم الله ـ فيقولون له: أنت مقصودنا وأنت الذي نزوره، وذهابنا لسيدي فلان مساعفة لك ومؤانسة لذاتك، فأنت مقصودنا سواء ذهبت لسيدي فلان تزوره أو إلى غيره، فإذا وصل الشيخ ﷺ إلى ضريح الولي الذي قصده يذهب وحده أو يستصحب واحدًا من أصحابه ليرافقه، وبقية أصحابه قانعون بالشيخ ﷺ مكتفون به، معتقدون أنه لا يبلغه أحد من أهل زمانه ﷺ ولا من الأموات قبله، وإنما يقدمون عليه ساداتنا الصحابة ﷺ لا غير، فهم لا يعرفون غير الشيخ ﷺ حضر الشيخ أو غاب في حياته وبعد مماته.

ولما مات الشيخ ﷺ كنت أتكلف الذهاب إلى زيارته في قبره كثيرًا، فوقف عليَّ في المنام وقال لي: إن ذاتي ليست بمحجوبة في القبر، بل هي في العالم كله عامرة له ومالئة، وفي أيّ موضع تطلبني تجدني، حتى إنك لو قمت إلى سارية في المسجد وتوسلت بي إلى الله ﷻ فإني أكون معك حينئذ.

ثم أشار إلى العالم كله، فقال: وأنا فيه بأجمعه، فحيثما طلبتني وجدتني، وإياك أن تظن أني أنا ربك ﷻ فإن ربك ﷻ غير محصور في العالم وأنا محصور فيه، هذا ما سمعته منه ﷺ في المنام.

وكذا سمعته ﷺ يقول في حياته: إن العالم كله قد يكون أحيانًا في وسط جوفي.

وسمعته ﷺ أحيانًا يقول: ما السماوات السبع والأرضون السبع في نظر العبد المؤمن إلا كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض، فواجب أيضًا أن تختلف حضرة الشيخ في قوله:

وَلَا تَعْـرِفَنْ فِي حَـضْرَةِ الـشَّيْخِ غَـيْرَهُ

بحسب مقامات الأشياخ ﷺ فحضرة شيخنا ﷺ هي العالم بأسره، والله أعلم.

ثم قال:

وَلَا تَنْطِقَنْ يَوْمًا لَدَيْهِ فَإِنْ دَعَا إِلَيْهِ فَلَا تَعْدِلْ عَلَى الْكَلِمِ النَّزْرِ

يقول والله أعلم: لا تنطقن في وقت من الأوقات عند شيخك، فإن سألك عن شيء فلا تعدل عن الجواب الذي تدعو إليه الحاجة إلى الإكثار والتطويل، فإن ذلك يزيل هيبة الشيخ، وهذا ـ والله أعلم ـ ما لم يطلب منه الشيخ الإكثار من الكلام، فإن طلب منه ذلك وكان للشيخ فيه غرض فإنه ينبغي له حينئذ الإسهاب والتطويل مراعيًا خاطر الشيخ، فإذا رآه شبع من الكلام فإنه يجب عليه الرجوع إلى أدبه.

وقد سبق ما كان يقوله لنا الشيخ ﷺ حين يغيب في المشاهدة: اهدروا عليّ كثيرًا، فإن الله يأجركم على ذلك؛ يعني: لأنه يرجع بذلك إلى حسه، وأصل هذا الكلام الذي في البيت لصاحب العوارف، قال فيها بعد أن ذكر تأويلات في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات:١].

وقيل: نزلت في أقوام كانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ فإذا سئل الرسول ﷺ عن شيء خاضوا فيه وتقدموا بالقول والفتوى، فنهوا عن ذلك.

وهكذا دأب المريد في مجلس الشيخ ينبغي أن يلزم السكوت ولا يقول شيئًا بحضرته من كلام حسن إلا إذا استأمره الشيخ في ذلك ووجد من الشيخ فسحة، وشأن المريد في حضرة الشيخ كمن هو قاعد على ساحل بحر ينتظر رزقًا يساق إليه، فتطلعه إلى الاستماع وما يرزق من طريق كلام الشيخ يحقق مقام إرادته وطلبه، واستزادته من فضل الله تعالى، وتطلعه إلى القول يرده عن مقام الطلب والاستزادة إلى مقام إثبات شيء لنفسه، وذلك جناية المريد، وينبغي أن يكون تطلعه إلى مبهم من حاله يستكشف عنه بالسؤال من الشيخ، على أن الصادق لا يحتاج إلى السؤال باللسان في حضرة الشيخ، بل يبادئه الشيخ بما يريد؛ لأن الشيخ يكون مستنطقًا نطقه بالحق، وهو عند حضور الصديقين يرفع قلبه إلى الله تعالى، ويستمطر ويستسقي لهم، فيكون لسانه وقلبه في القول والنطق مأخوذين إلى مهم

الوقت من أحوال الطالبين المحتاجين إلى ما يفتح عليه.

ثم قال: ويكون الشيخ فيما يجريه الحق ﷻ على لسانه مستمعًا كأحد المستمعين.

وكان الشيخ أبو السعود ـ رحمه الله ـ يكلم الأصحاب ويقول بما يلقى إليه [ويبذل].

ويقول: أنا في هذا الكلام مستمع كأحدكم، فأشكل ذلك على بعض الحاضرين.

وقال: إذا كان القائل يعلم ما يقول فكيف يكون مستمعًا؟ فرجع إلى منزله فرأى في ليلته في المنام كأن قائلاً يقول له: أليس الغواص يغوص في البحر لطلب الدر، ويرجع بالصدف في مخلاته، والدر قد حصل معه ولكن لا يراه إلا إذا خرج من البحر، ويشاركه في رؤية الدر من هو على الساحل؟ ففهم في المنام إشارة الشيخ في ذلك، فأحسن آداب المريد مع الشيخ السكون والخمود والجمود حتى يبادئه الشيخ بما له فيه المصلحة قولاً وفعلاً. انتهى والله أعلم.

ثم قال:

وَلَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِهِ وَلَا تَجْهَرُوا جَهْرَ الَّذِي هُوَ فِي قَفْرِ

يقول، والله أعلم: لا ترفعوا أيها المريدون أصواتكم فوق صوت الشيخ، فإن ذلك يخل بالأدب، ولا تجهروا له بالقول كجهر سكان القفار والبوادي الذين معهم جفاء وجلافة، ولكن عظموه وفخموه وقولوا: يا سيدي، ويا أستاذي، ويا ولي الله، ونحو ذلك.

وأصل هذا الكلام الآية الشريفة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ**﴾ [الحجرات:٢].

قال السهروردي في «العوارف» ﷺ: ومن تأديب الله تعالى أصحاب رسول الله ﷺ قوله: ﴿**لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ**﴾ [الحجرات:٢] كان ثابت بن قيس بن شماس في أذنه وقر وكان جهوري الصوت، وكان إذا تكلم جهر بصوته، وربما كان يكلم النبي ﷺ فيتأذى بصوته، فأنزل الله الآية تأديبًا له ولغيره.

ثم قال بعد أن ذكر رواية في سبب نزولها، وأنها نزلت في منازعة أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ بحضرته.

قال: فكان عمر بعد ذلك إذا تكلم عند النبي ﷺ لا يسمع كلامه حتى يستفهم.

وقيل: لما نزلت الآية إلى أبي بكر ألّا يتكلم عند النبي ﷺ إلا كأخي السرار[1].

فهكذا ينبغي أن يكون المريد مع شيخه، فلا ينبسط برفع الصوت وكثرة الضحك والكلام إلا إذا باسطه الشيخ، فرفع الصوت إلقاء لجلباب الوفاء والوقار إذا سكن القلب عقل اللسان ما يقول، وقد [ينازل][2] باطن بعض المريدين من الحرمة والوقار من الشيخ ما لا يستطيع أن يشبع النظر إلى الشيخ.

ثم قال: قال ابن عطاء في قوله: ﴿**لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ**﴾ [الحجرات:٢]: زجر عن الأدنى؛ لئلا يتخطى أحد إلى ما فوقه من ترك الحرمة.

وقال سهل في ذلك: لا تخاطبوه إلا مستفهمين.

وقال أبو بكر بن طاهر: لا تبدؤوه بالخطاب ولا تجيبوه إلا على حدود الحرمة ﴿**وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ**﴾ [الحجرات:٢] أي: لا تغلظوا له في الخطاب، ولا تنادوه باسمه: يا محمد، يا أحمد، كما ينادي بعضكم لبعض، ولكن فخموه وعظموه وقولوا له: يا نبي الله، يا رسول الله ﷺ.

ومن هذا القبيل يكون الخطاب من المريد للشيخ، وإذا سكن الوقار في القلب ظهر على اللسان كيفية الخطاب، ولما كلفت النفس بمحبة الأولاد والأزواج، وتمكنت أهوية النفوس والطباع استخرجت من اللسان عبارات غريبة هي من تحت وقتها صاغها كلف النفوس وهواها، وإذا امتلأ القلب حرمة ووقارًا تعلم اللسان العبارة.

ثم قال بعد أن ذكر ما فعل ثابت بن قيس ﷺ: لما نزلت الآية من تقييده نفسه، وما شهد له به رسول الله ﷺ حينئذ من عيشه سعيدًا، وموته شهيدًا، ودخوله الجنة، وما آل إليه أمره من نزول قوله تعالى فيه: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ**

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٠٢)، وأحمد (١٦١٧٨).

(٢) في (ب): ينال.

﴿الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ [الحجرات:٣] والشهادة، والوصية بعد الموت، وإجازة أبي بكر ﷺ لها.

قال: فهذه كرامة ظهرت لثابت بحسن تقواه، وأدبه مع رسول الله ﷺ فليعتبر المريد الصادق، وليعلم أن الشيخ تذكرة من الله تعالى ورسوله، وأن الذي يعتمده مع الشيخ عوض ما لو كان في زمن رسول الله ﷺ لاعتمده مع رسول الله ﷺ فلما قام القوم بواجب الأدب أخبر الحق عن حالهم وأثنى عليهم، فقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ [الحجرات:٣] أي: أخلص قلوبهم واختبرها كما يمتحن الذهب بالنار فيخرج خالصه، فكان اللسان ترجمان القلب، وتهذب اللفظ لما تهذب القلب، فهكذا ينبغي أن يكون المريد مع الشيخ.

قال أبو عثمان: الأدب مع الأكابر وفي مجلس السادات من الأولياء يبلغ بصاحبه إلى الدرجات العلى، والخير في الدنيا والعقبى، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [الحجرات:٥].

ثم قال بعد كلام في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ [الحجرات:٤]: وفي هذا تأديب للمريد في الدخول على الشيخ والإقدام عليه وترك الاستعجال وصبره إلى أن يخرج الله الشيخ من موضع خلوته. ثم قال:

وَلَا تَرْفَعَنْ بِالضَّحْكِ صَوْتَكَ عِنْدَهُ فَلَا قُبْحَ إِلَّا دُونَ ذَلِكَ فَاسْتَقِرِ

قال عياض: الضحك حالة تغير يوجبها سرور يغلب [على العقل]، فتنبسط له عروق القلب، فيجري فيها الدم فيفيض إلى سائر عروق الجسد، فتثور لذلك حرارة ينبسط لها الوجه، ويضيق منها الفم وينفخ وهو التبسم، فإذا زاد السرور وتمادى ولم يضبط الإنسان نفسه قهقه. انتهى.

أي: لا ترفعن بالضحك صوتك عند الشيخ، فلا قبح من الأمور التي سبق ذمها والنهي عنها إلا دون رفع الصوت بالضحك بحضرة الشيخ؛ أي: فهو فوقها كلها في القبح.

وقوله: «فاستقر» هكذا بالقاف من الاستقراء في بعض النسخ؛ أي: استقر الأمور

المذمومة، فإنك تجد هذا الأمر فوقها في القُبح، وفي بعضها بالعين المهملة هكذا «فاستعر» من الاستعراء وهو طلب التعري من هذا الأمر الذميم؛ أي: فتخلص من هذا الأمر وتخل عنه.

وفي «العوارف»: وتصعب معرفة الاعتدال في الضحك، والضحك من خصائص الإنسان ويميزه عن جنس الحيوان، ولا يكون الضحك إلا من سابقة تعجب، والتعجب يستدعي الفكر، والفكر شرف الإنسان وخاصيته، ومعرفة الاعتدال فيه شأن من ترسخ قدمه في العلم.

ولهذا قيل: إياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب.

وقيل: كثرة الضحك من الرعونة.

وروي عن عيسى أنه قال: إن الله يبغض الضحاك من غير عجب، والمشاء من غير أرب.

ثم قال: وجعل أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ القهقهة من الذنب، وحكم ببطلان الوضوء بها، وقال: تقيم الإثم مقام خروج الخارج. انتهى.

ثم قال:

وَلَا تَقْعُدَنْ قُدَّامَهُ مُتَرَبِّعًا ... وَلَا بَادِيًا رجلاً فَبَادِرْ إِلَى السِّتْرِ

معناه ظاهر.

وقال أبو طالب المكي ﷺ: وكان من هدي العلماء في قعودهم أن يجتمع أحدهم في جلسته وينصب ركبتيه، ومنهم من يقعد على قدميه ويضع مرفقيه على ركبتيه، كذلك كان من شمائل كل من تكلم في هذا العلم خاصة من عهد أصحاب رسول الله ﷺ ومن زمان الحسن البصري، وهو أول من تكلم في هذا العلم، وفتق الألسنة به إلى وقت أبي القاسم الجنيد قبل أن تظهر الكراسي.

وكذلك روينا عن رسول الله ﷺ «أنه كان يقعد القرفصاء ويحتبي بيديه»[1]، وفي

(١) أخرجه الترمذي في الشمائل (١٢٨) بتحقيقنا.

خبر آخر: «كان يقعد على قدميه ويجعل يديه على ركبتيه»[1].

ثم قال: وإنما كان يجلس متربعًا النحويون وأهل اللغة وأبناء الدنيا من العلماء المفتين، وهي جلسة المتكبرين، ومن التواضع الاجتماع في الجلسة. انتهى.

فللمريد أُسوة حسنة في النبي ﷺ ومن بعده من العلماء الزاهدين أهل المعرفة واليقين.

ثم قال:

وَلَا بَاسِطًا سَجَّادَةً بِحُضُورِهِ فَلَا قَصْدَ إِلَّا السَّعْيُ لِلْخَادِمِ الْبَرِّ

وَسَجَّادَةُ الصُّوفِيِّ بَيْتُ سُكُونِهِ وَلَا وَكْرَ إِلَّا أَنْ يَطِيرَ عَنِ الْوَكْرِ

يقول، والله أعلم: ولا تكن أيها المريد باسطًا سجادة تجلس عليها بحضور شيخك، فإن ذلك ينافي مقصودك، فإن مقصودك خدمة الشيخ والقيام بأموره وبذل النفس في حوائجه ومهماته، واشتغالك بالجلوس على السجادة يقتضي طلب الراحة، ويوهم التساوي مع الشيخ في الدرجة، ومحل سجادة الصوفي بيت سكناه لا مجلس شيخه، بل ينبغي له في مجلس شيخه التواضع والتصاغر والاشتغال بالخدمة.

وقوله: «**ولا وكر إلا أن يطير عن الوكر**» الوكر: هو عش الطائر الذي يأوي إليه، وأطلقه هنا على مجلس الشيخ الذي يأوي إليه المريدون.

والمعنى: وكما أنه لا سجادة لك مع حضور الشيخ فلا وكر لك معه؛ أي: لا مجلس لك معه يجتمع عليك الناس فيه وتنصرف إليك فيه الوجوه، فإن في ذلك سوء أدب مع الشيخ وقطيعة وعقوقًا، اللهم إلا أن تكون تربيتك كملت ووصل لك الفطام، وأذن لك الشيخ بالتربية والاستقلال وصرت إمامًا مربيًّا، فلا بأس بالمجلس حينئذ، لكن بعد الانفصال عن الشيخ وفراقه لمحل آخر، وعنه كنى بقوله: «**إلا أن يطير عن الوكر**» أي: إلا أن يكمل أمره ويطير عن شيخه ويستقل بنفسه، كالفرخ الذي كملت تربيته وقدر على الطيران، فإنه يستقل بأمره ولا يحتاج إلى أبيه.

وقوله: «**فلا قصد إلا السعي للخادم البر**» أي: لا غرض للخادم البر الصادق في

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٣٧).

الإرادة إلا السعي في حوائج الشيخ ومهماته.

قال في «العوارف»: ومن آدابهم الظاهرة أن المريد لا يبسط سجادته مع وجود الشيخ إلا لوقت الصلاة، فإن المريد من شأنه التبتل بالخدمة، وفي السجادة إيماء إلى الاستراحة والتعزز.

ثم قال في موضع آخر بعد كلام: والخدمة شأن من دخل الرباط مبتدئًا ولم يذق طعم المعاملة، ولم ينتبه لنفائس الأحوال، فيؤمر بالخدمة لتكون عبادته خدمته، ويجذب بحسن الخدمة قلوب أهل الله تعالى إليه، فتشمله بركة ذلك، ويعين المشتغلين بالعبادة، إلى أن قال: والخدمة عند القوم من جملة العمل الصالح، وهي طريق من طرق المواجد تكسبهم الأوصاف الجميلة والأحوال الحسنة.

ثم قال:

وَمَا دُمْتَ لَمْ تُفْطَمْ فَلَا فَرَجِيَّةٌ عَلَيْكَ وَلَا تُلْفَى عَلَيْهَا بِمُسْتَجْرِ

يقول، والله أعلم: وما دمت أيها المريد لم تفطم عن رضاع التربية، ولم تبلغ إلى درجة الاستقلال فلا ينبغي لك لباس ما هو من زي الشيوخ كالفرجية، وهي لباس معروف عندهم. والمستجري هو الذي له جرأة على الشيء.

قال أبو عبد الرحمن محمد بن الحسن السلمي ﷺ: ويكره لبس الفرجية أيضًا إلا للمشايخ، فإنها بمنزلة الطيلسان والسجادة، فالطيلسان للمشايخ والبرانس للمريدين. انتهى.

وهذا الحكم جار في كل زي للشيوخ؛ لأن العلة واحدة وهو يختلف باختلاف الأعراف. ثم قال:

وَلَا تَرَيَنْ فِي الْأَرْضِ دُونَكَ مُؤْمِنًا وَلَا كَافِرًا حَتَّى تُغَيَّبَ فِي الْقَبْرِ

يقول، والله أعلم: ولا ترين أيها المريد في الأرض مؤمنًا أو كافرًا أدنى منك منزلة وأخفض منك عند الله مرتبة، بل اعكس الأمر وقل: إنك دون كل أحد، واستمر على ذلك إلى أن تموت.

قال أبو يزيد البسطامي ﷺ: ما دام العبد يظن أن في الخلق من هو شر منه فهو

متكبر. قيل: فمتى يكون متواضعًا؟ قال: إذا لم ير لنفسه مقامًا ولا حالاً وتواضع مع كل أحد على قدر معرفته بربه وبنفسه.

قال في «العوارف»: وقد سئل يوسف بن أسباط: ما غاية التواضع؟ فقال: أن تخرج من بيتك فلا تلقى أحدًا إلا رأيته خيرًا منك. ورأيت شيخنا ضياء الدين أبا النجيب وكنت معه في سفره إلى الشام وقد بعث له بعض أبناء الدنيا طعامًا على رءوس الأسارى من الإفرنج وهم في قيودهم، فلما مدت السفرة والأسارى ينتظرون الأواني حتى تفرغ، قال للخادم: أحضر الأسارى حتى يقعدوا على السفرة مع الفقراء، فجاء بهم وأقعدهم على السفرة صفًّا واحدًا، وقام الشيخ من سجادته ومشى إليهم وقعد بينهم كواحد منهم، فأكل وأكلوا، وظهر لنا على وجهه ما نازل باطنه من التواضع لله والانكسار في نفسه وانسلاخه من التكبر عليهم بإيمانه وعلمه وعمله.

وقال الشيخ أبو الحسن علي بن عتيق بن مؤمن القرظي، رحمه الله: رأيت الشيخ الفقيه أبا محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن مقيد - وكان من الفقهاء العلماء - يومًا وهو يمشي في يوم شات كثير المطر والطين، فاستقبله كلب يمشي على الطريق الذي كان يمشي عليه.

قال: فرأيته قد لصق بالحائط وعمل للكلب طريقًا ووقف ينتظره ليجوز، وحينئذ يمشي هو، فلما قرب منه الكلب رأيته قد ترك مكانه الذي كان فيه ونزل أسفل وترك الكلب يمشي فوقه.

قال: فلما جازه الكلب وصلت إليه فوجدته عليه كآبة، فقلت: يا سيدي، رأيتك الآن صنعت شيئًا استغربته، كيف رميت نفسك في الطين وتركت الكلب يمشي في الموضع النقي؟

فقال لي: بعد أن عملت له طريقًا تحتي تفكرت وقلت: ترفعت عن الكلب، وجعلت نفسي أرفع منه، بل هو والله أرفع مني وأولى بالكرامة؛ لأني عصيت الله تعالى وأنا كثير الذنوب والكلب لا ذنب له، فنزلت له عن موضعي وتركته يمشي عليه، وأنا الآن أخاف المقت من الله إلا أن يعفو عني؛ لأني رفعت نفسي على من خير مني.

وقال ذو النون ﷺ: من أراد التواضع فليوجه نفسه إلى عظمة الله فإنها تذوب

وتصغر، ومن نظر إلى عظمة الله تعالى وسلطانه ذهب عنه سلطان نفسه؛ لأن النفوس كلها صغيرة عند هيبته، فإذا حصل العبد على هذا المعنى من التواضع تواضع للخلق لا محالة؛ لرؤية نسبتهم إلى الحق تعالى.

ولذلك قال في «العوارف»: ومتى لم يكن للصوفي حظ من التواضع الخاص على بساط القرب لا يتوفر حظه من التواضع للخلق. انتهى والله أعلم.

ثم قال:

فَإِنَّ خِتَامَ الْأَمْرِ عَنْكَ مُغَيَّبٌ وَمَنْ لَيْسَ ذَا خُسْرٍ يَخَافُ مِنَ الْمَكْرِ

يعني: إن الخاتمة مجهولة، وجهلها يقتضي ما سبق، وهو أنه لا يرى أحدًا دونه، فإن كان الشخص ذا خسر فلا إشكال في خوفه، وإن كان ذا عمل صالح فإنه لا يأمن مكر الله.

قال ابن العربي الحاتمي ﷺ: ومن آدابهم مع الله تعالى وقليل فاعله أن يعتقد الإنسان أن لله نظرات في كل زمان إلى قلوب عباده، يمنحهم فيها من معارفه ولطائفه ما شاء، فإذا فارق شخصًا ساعة واحدة، وأعرض عنه نفسًا واحدًا وهو جالس معه ثم عاد إليه، فإنه يتهيأ للقائه بالخدمة والتعظيم، لعل نظرة من نظراته حصلت له أغنته.

فإن كان الأمر كذلك؛ يعني: بأن حصلت له نظرة من تلك النظرات فقد وفى معه الأدب، وإن لم يكن الأمر كذلك؛ يعني: بأن لم يحصل له شيء من تلك النظرات فقد تأدب مع الله تعالى حيث عامله بما تقتضيه المرتبة الإلهية، وهذا مقام عزيز قل أن ترى له ذائقًا.

وكذلك أيضًا إذا شاهدوا عاصيًا في حال عصيانه ثم زال عن تلك المعصية فإنهم لا يعتقدون فيه الإصرار ويقولون: لعله تاب في سره، ولعله ممن لا تضره المعصية؛ لاعتناء الباري به في عاقبة أمره.

ومن نظر نفسه خيرًا من أحد من غير أن يعرف مرتبته ومرتبة ذلك الآخر بالغاية لا بالوقت فهو جاهل بالله ﷻ مخدوع لا خير فيه ولو أعطي من المعارف ما أعطي. انتهى.

وقال أبو طالب المكي ﷺ: ومن خوف العارفين علمهم بأن الله ﷻ يخوف عباده بمن شاء من عباده الأعلين يجعلهم نكالاً للأدنين، ويخوف العموم من خلقه بالتنكيل بعض الخصوص من عباده حكمة له وحكمًا منه، فعند الخائفين في علمهم أن الله تعالى قد

أخرج طائفة من الصالحين نكالاً خوف بهم المؤمنين، ونكل بطائفة من الشهداء خوف بهم الصالحين، وأخرج جماعة من الصديقين خوف بهم الشهداء، والله أعلم بما وراء ذلك.

فصار من أهل كل مقام عبرة لمن دونهم، وموعظة لمن فوقهم، وتخويف وتهديد لأصحابهم، وهذا داخل في وصف من أوصافه وهو ترك المبالاة بما ظهر من العلوم والأعمال، فلم يسكن عند ذلك أحد من أهل المقامات في مقام، ولا نظر أحد من أهل الأحوال إلى حال، ولا أمن من مكر الله ﷻ عالم به في كل الأحوال. انتهى.

وقال أبو حامد ﷺ: إن الأمور مرتبطة بالمشيئة ارتباطًا يخرج عن حد المعقولات والمألوفات، ولا يمكن الحكم عليها بقياس ولا حدس وحسبان، فضلاً عن التحقيق والاستيقان. وهذا الذي قطع قلوب العارفين؛ إذ الطامة الكبرى هي ارتباط أمرك بمشيئة من لا يبالي بك.

ثم قال بعد كلام طويل: قال بعض العارفين: لو حال بيني وبين من عرفته خمسين سنة بالتوحيد أسطوانة فمات، لما قطعت له بالتوحيد؛ لأني لا أدري ما ظهر له من التقليب.

وقال بعضهم: لو كانت الشهادة على باب الدار والموت على الإسلام على باب الحجرة لاخترت الموت على الإسلام؛ لأني لا أدري ما يعرض لقلبي من باب الحجرة إلى باب الدار.

وكان سهل يقول: خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطرة وكل حركة، وهم الذين وصفهم الله تعالى إذ قال الله تعالى: ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون:٦٠].

قال: وكان سهل يقول: المريد يخاف أن يبتلى بالمعاصي، والعارف يخاف أن يبتلى بالكفر.

وكان أبو زيد يقول: إذا توجهت إلى المسجد فكأن في وسطي زنار أخاف أن يذهب بي إلى البيعة أو لبيت النار، حتى أدخل المسجد فينقطع عني الزنار، فهذا دأبي كل يوم خمس مرات.

ووقعت حكاية غريبة من هذا المعنى سمعتها من الشيخ ﷺ.

وسمعته ﷺ يقول: لقيت بمكة ـ شرفها الله ـ أبا الحسن علي الصدغاء الهندي،

فوجدته على حالة غريبة؛ وذلك أنه إذا أراد أن يخطو خطوة يرفع رجله وترتعد في الهواء ثم يردها فترتعد، ثم يعيدها إلى ناحية الخطوة فترتعد، ولا يكمل الخطوة حتى يقول من رآه: ما به إلا الجنون، ثم هكذا في كل خطوة. وكذا إذا رفع طعامًا إلى فيه يقع له مثل ذلك، فيمد يده إلى ناحية فمه فترتعد، ثم يردها إلى ناحية فمه فترتعد، ولا يجعل اللقمة في فيه حتى يرحمه كل من يراه. وكذا يقع له مثل ذلك إذا أراد أن يضطجع، وبلغ به الحال إلى أن وقع له ذلك في كل حركة اختيارية منسوبة إليه، حتى وقع له ذلك في تغميض الجفن وفتحه.

فلما رأيت منه ذلك أكربني وأحزنني غاية حتى رحمته، فقلت له: يا أبا الحسن، ما هذه الحالة التي أنت عليها، وقد جعلك الله من أوليائه وخواص أصفيائه، ومن كبار العارفين به، ومن أهل الديوان، وذاتك سليمة صحيحة لا علة فيها؟

فقال: ما ذكرت هذا الذي حل بي لأحد سواكم وسأذكره لكم، وهو أن الله تعالى ـ وله الحمد ـ أطلعني على مشاهدة فعله في مخلوقاته، فأنا أرى فعله ساريًا في الخليقة عيانًا لا يغيب علي منه بشيء، ثم أطلعني الله ـ تبارك وتعالى، وله الحمد ـ بمحض فضله على أسرار فعله وقضائه وقدره في خليقته، فأنا أشاهد تلك الأفعال، وأعلم لم كانت، وأعلم أسرار القدر فيها بحيث لا يخفى علي شيء من تلك الأسرار.

ثم نظرت إلى فعله فيّ فوجدته قد حجبني عن مشاهدته ومشاهدة أسراره، فوقع في ظني أنه ما حجبني عن مشاهدته إلا لشر أراده بي، بأن يكون سخطه تعالى مقرونًا بفعل من أفعالي، فحجبني عن الجميع حتى لا أعلم الذي يكون هلاكي به فأجتنبه، فلذا صرت خائفًا من كل فعل اختياري منسوب لي، وأجوّز في كل فعل من أفعالي الاختيارية أن يكون هو سبب هلاكي، فما من فعل من أفعالي إلا وأنا خائف منه، فلذلك صرت أتضرع إلى الله تعالى بظاهري وباطني، وأستحضر الخوف من الفعل الذي أريد أن أقدم عليه، وأسأله تعالى ألّا يكون ذلك الفعل سببًا لهلاكي، والحركة الأولى في مد رجلي فعل فأرتعد منها وأخاف فأردها، وأرتعد خوفًا من الرد، وهكذا في كل فعل.

قال الشيخ ﷺ: فما زلت أذكره بالله ﷻ وأذكر له سعة رحمته، وقوله في الحديث

القدسي: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ، فَإِنْ ظَنَّ بِي خَيْرًا أَعْطَيْتُهُ خَيْرًا»[1] وهو يسمع لكلامي حتى ظننت أنه سيرجع عن حالته تلك، ثم عاوده ظنه وبقي على حالته، وكل من رآه يرحمه ويدعو له بتعجيل الراحة بهذه أو بهذه.

قال ﷺ: وتمنيت أن يراه أهل الحجاب ويعلمون بسر حاله وشدة خوفه من الله ﷻ وعظيم مراقبته له ﷻ في كل حركة وسكون؛ حتى يعلموا ما هم عليه من الانهماك في الشهوات والقطيعة عن الله ﷻ.

قال ﷺ: وإنما أخفى ﷻ فعله فيه عن مشاهدته لرحمة أرادها به، فإنه لو أطلعه على ذلك وصار يشاهد الفعل فيه لذابت ذاته، ولما أراد تعالى بقاءه واستمراره إلى أجل معين أخفى عليه فعله فيه ومشاهدة فعل الرب ﷻ بالعبد كما ثبتت له ثبتت لغيره من الأولياء، بل وكذا سائر الأنبياء، والحادث كيفما كان لا يطيق مشاهدة فعل الرب فيه وإلا لذاب، وإنما الذي يطيقه الحادث مشاهدة فعل الرب في غيره، والله أعلم.

ثم قال:

وَلَا تَنْظُرَنْ يَوْمًا إِلَى الْخَلْقِ إِنَّهُ يُخَلِّي طَلِيقَ الصَّفْوِ فِي كَدَرِ الْأَسْرِ

لما نهى المريد عن التكبر على الخلق والازدراء بهم حذره من الإفراط في الجانب الآخر؛ كي لا يجعلهم قبلة ويرائيهم في أفعاله، وينظر إليهم في أحواله وأقواله، فقال: ولا تنظرن يومًا؛ أي: لحظة من الزمان ووقتًا من الأوقات إلى الخلق فتراعيهم في أحوالك وأفعالك وأقوالك وشئونك كلها من عبادات وعادات، فإن النظر إليهم في ذلك والتقييد بهم يخلي الطليق الصافي من العلل والآفات في كدر أسر العلل والآفات؛ لأنك حيث نظرت إلى الخلق في أفعالك وأقوالك يدخل عليك الرياء والتصنع لهم والتزين لهم وتحسين

---

(١) حديث واثلة: أخرجه ابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله (ص ١٥، رقم ٢)، والحكيم (٣/ ٩٩)، وابن حبان (٢/ ٤٠١، رقم ٦٣٣)، وابن عدى (٦/ ٣٢٦، ترجمة ١٨٠٧ معروف بن عبد الله الخياط)، والطبراني (٢٢/ ٨٧، رقم ٢١٠)، والحاكم (٤/ ٢٦٨، رقم ٧٦٠٣)، وقال: صحيح الإسناد. وأخرجه أيضا: أحمد (٣/ ٤٩١، رقم ١٦٠٥٩)، والدارمى (٢/ ٣٩٥، رقم ٢٧٣١).

حديث أنس: أخرجه أحمد (٣/ ٢١٠، رقم ١٣٢١٥).

حديث أبي هريرة: أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٦٧، رقم ٢٦٧٥)، والترمذى (٤/ ٥٩٦، رقم ٢٣٨٨) وقال: حسن صحيح. وأخرجه أيضًا: أحمد (٢/ ٤٤٥، رقم ٩٧٤٨).

مواضع نظرهم منك؛ ولذا قال الشيخ أبو عبد الله [القرشي][1] ﷺ: من لم يقنع في أقواله وأفعاله بسمع الله ونظره دخل عليه الرياء لا محالة.

وقال بشر الحافي ﷺ: ما أعرف رجلاً أحب أن يعرف إلا افتضح. وقال أيضًا: لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس.

وقال بعضهم: ولا تطمع في المنزلة عند الله وأنت تريد المنزلة عند الناس.

قال في «العوارف»: وهذا أصل ينفسد به كثير من الأعمال إذا أهمل، وينصلح به كثير من الأحوال إذا اعتبر.

وهذا الكلام هو أصل هذا البيت.

وكنت مع الشيخ ﷺ ذات يوم بباب الحديد، فنظر إليّ وقال: لا يطمع أحد في معرفة الله وهو لا يعرف الرسول ﷺ ولا يطمع أحد في معرفة الرسول ﷺ وهو لا يعرف شيخه، ولا يطمع أحد في معرفة شيخه وهو لم يصل على الناس صلاته على الجنازة، فإذا خرج الناس من نظره وصار لا يبالي بهم في أقواله وأفعاله وشئونه كلها جاءته الرحمة من حيث لا يحتسب.

ويعجب الشيخ ﷺ ممن لا يبالي بنظر الناس إليه، ويحكي لنا في هذا الباب أسرارًا نفيسة، وفقنا الله لما يحبه ويرضاه بمنه وكرمه آمين، والله أعلم.

ثم قال:

وَإِنْ نَظَمَ الْحَقُّ الْكَرَامَاتِ أَسْطُرًا ... فَلَا تُبْدِيَنْ حرفًا لِغَيْرِكَ مِنْ سَطْرِ

سِوَى الشَّيْخِ لَا تَكْتُمْهُ سِرًّا فَإِنَّهُ ... بِسَاحَةِ كَشْفِ السِّرِّ يَجْرِي عَلَى بَحْرِ

سبق أن المريد إذا صلى على الناس صلاته على الجنازة وخرجوا من نظره فإن الرحمة تأتيه من حيث لا يحتسب.

ولذلك قال: «**وإن نظم الحق الكرامات**» أي: وإن رحمك الله ﷻ حيث انحصر نظرك فيه، وظهر لك كرامات كثيرة، فالأدب أن تكتمها ولا تذكرها لأحد سوى الشيخ،

---

(١) في (ب): القشيري، والمثبت هو الصواب.

فلا تكتمه شيئًا منها، فإنه طبيبك العارف بعللك التي تقطع عنك الطريق، ومن كان بهذه الصفة فهو جدير بأن تكشف له الأسرار وترفع دونه الأستار.

وقوله: «**فإنه بساحة كشف السر يجري على بحر**» أي: فإن الشيخ لمعرفته بعللك بمثابة من يجري على بحر في ساحة كشف السر، والساحة هي المحل هنا، والمعنى: فإن الشيخ يجري على بحر في محل كشف السر.

قال في «العوارف»: ومن الأدب ألّا يكتم عن الشيخ شيء من أحواله ومواهب موارد فضل الحق عنده، وما يظهر له من كرامة أو إجابة، ويكشف للشيخ من حاله ما يعلم الله تعالى منه، وما يستحي من كشفه يذكره إيماء وتعريضًا، فإن المريد متى انطوى ضميره على شيء لا يكشفه للشيخ تصريحًا وتعريضًا يصير على باطنه عقدة في الطريق، وبالقول مع الشيخ تنحل العقدة وتزول.

ثم قال في «آداب الشيخ»: ومن جملة مهام الآداب حفظ أسرار المريدين فيما يكاشفون ويمنحون من أنواع المنح، فسر المريد لا يتجاوز ربه وشيخه، ثم يحضر الشيخ في نفس المريد ما يجده في خلوته من كشف أو سماع خطاب، أو شيء من خوارق العادات، ويعرفه أن الوقوف مع شيء من هذا يشغل عن الله تعالى. انتهى الغرض منه.

* **قلت**: وكنت أتكلم ذات يوم مع الشيخ ﷺ في قوله تعالى: ﴿**أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى**﴾ [الأعراف:١٧٢] فذكر لي في ذلك كلامًا نفيسًا فتأولت فيه تأويلاً، فجعل يحضر لي في الصلاة، ففرحت به وذكرته للشيخ ﷺ فساعفني في أول الحال، ثم بعده بأيام قال لي: اترك ذلك عنك، فلم أفهم سره، ولم يزل ﷺ يزجرني عن ذلك حتى تبين لي بعد ذلك أنه لو طال عليّ لجرني إلى أمور قبيحة، فحمدت الله تعالى وعلمت أنه من بركته ﷺ.

وشكوت له ذات يوم ﷺ شيئًا من الأمور التي تعرض لنا.

فقال لي ﷺ: إنه لا يقع لك ولا يعرض لك بعد هذا أبدًا. فكان الأمر كذلك، وكأنما ضرب بيني وبينه بسور.

وشكوت له ﷺ ذات يوم أمرًا نزل بي فيه ضرر في الدين والدنيا لا تؤمن غائلته.

فقال لي ﷺ: أمّا في الدنيا فلا تخش منه أبدًا، ولا يقع لك منه شر أصلاً، وأمّا في

الآخرة فأنا أتكفل لك عند الله تعالى أنك لا تُسأل عن هذا الأمر، ولا تحاسب عليه، فكان الأمر في الدنيا كما قال ﷺ ونرجو من الله ﷻ أن يكون الأمر في الآخرة كما قال ﷺ.

وكان ﷺ يقول لنا: لا تكتموا عني شيئًا من الأمور التي تنزل بكم في الدين والدنيا، وأخبروني حتى بالمعاصي التي تقع لكم، وإن لم تخبروني أخبرتكم، فإنه لا خير في صحبة يستر معها شيء من أحوال المتصاحبين.

وكان ﷺ يقول: أمّا أنا فلا أكتم عنكم شيئًا من أموري. ثم يشرح لنا ﷺ حاله حتى بلغ إلى وقته ذلك، ويذكر لنا جميع ما وقع له من العاديات وغيرها.

ويقول لنا ﷺ: إن لم أخبركم ولم أطلعكم على أحوالي فإن الله يعاقبني ويحاسبني؛ لأنكم تظنون بي الخير، فاصبروا حتى أذكر لكم الأمور الباطنية التي لم تطلعوا عليها، فمن شاء منكم بعد ذلك أن يبقى معي فليبق، وحينئذ يحل لي أكل طعامه وقبول هديته، ومن شاء أن يذهب فليذهب، فإن سكوتي عن ذكر تلك الأمور غش لكم.

وما كان ﷺ لأصحابه إلا رحمة محضة، يشفع لهم في زلاتهم، ويتكفل لهم بنوائبهم، ويتحمل لهم كل ما يخشون عاقبته، ويهتم لأمورهم أكثر مما يهتم لأموره.

وقال لي ﷺ ذات يوم: الرجل الذي لا يشاطر صاحبه في سيئاته ما هو بصاحب له.

وقال: إن لم تكن الصحبة إلا على الحسنات فما هي بصحبة.

وبالجملة: فما كان ﷺ لأصحابه إلا رحمة مرسلة من الله ﷻ فعلى مثله يبكي الباكون.

ولو رمنا تفصيل أعيان الجزئيات الواقعة لنا معه ولغيرنا في هذا الباب لطال الكلام، فظهر بهذا قوله في «العوارف»: وبالقول مع الشيخ تنحل العقدة، والله أعلم.

ثم قال:

وَفِي الْكَشْفِ إِنْ كُوشِفْتَ رَاجِعْهُ إِنَّهُ ... لِتَوْضِيحِ مَا كُوشِفْتَ مُبْتَسِمُ الثَّغْرِ

أي: راجع أيها المريد شيخك في الكشف إن كوشفت بشيء، إنه ـ أي: الشيخ ـ مبتسم الثغر لإيضاح الكشف؛ أي: إنه مسرور وراض بسؤالك له عن الكشف، فيوضح لك سره.

قال السهروردي ﷺ: وقد تتجرد للذاكر الحقائق من غير مثال فيكون ذلك كشفًا وإخبارًا من الله تعالى إياه، ويكون ذلك تارة بالرؤية، وتارة بالسماع، وقد يسمع من باطنه، وقد يطرق ذلك من الهواء لا من باطنه، كالهواتف يعلم بذلك أمرًا يريده الله له أو لغيره، فيكون ذلك إخبارًا من الله تعالى له ليزداد يقينه.

وفوق هذا كله من كوشف بصرف اليقين بخلاف ما قبله من الكشف فإنه قد يقع للبراهمة والفلاسفة، والدهريين والرهبانيين، وغيرهم ممن سلك طريق الخذلان والردى، يكون ذلك في حقهم مكرًا واستدراجًا؛ ليستحسنوا حالهم ويستقروا في مقام الطرد والبعد إبقاء لهم فيما أراد منهم من العمى والضلال، والردى والوبال؛ حتى لا يغتر السالك بشيء من ذلك، ويعلم أنه لو مشى على الهواء والماء لا ينفعه ذلك حتى يؤدي حق التقوى والزهد. انتهى الغرض منه مختصرًا وملفقًا.

فلذا احتيج إلى الشيخ في الكشف حيث كانت غائلته لا تؤمن.

ثم قال:

وَلَا تَنْفَـرِدْ عَنْـهُ بِوَاقِعَـةٍ جَـرَتْ فَفِي غَـشَا عَيْنَـاكَ وَالسَّمْعُ فِي وَقْـرِ

«**الغشا**»: ضعف في البصر.

و«**الوقر**»: ثقل في الأذن، وقيل: ذهاب السمع كله.

وأمّا الواقعة: فالذي يؤخذ من كلام صاحب «العوارف» أنها ظهور الحقائق في صورة مثال، كما أن الكشف ظهور الحقائق لا في صورة، مثال ذلك الظفر بالعدو، فإن النائم قد يرى في منامه أنه يظفر بعدوه، فإذا ظفر به بعد ذلك كانت رؤياه لا تحتاج إلى تعبير، وقد يرى النائم في منامه الظفر به في صورة مثال، كما إذا رأى أنه قتل حية فاستيقظ فظفر بعدوه، فحينئذ حقيقة الظفر ظهرت في صورة مثال، فتحتاج رؤياه إلى تعبير.

وفي القسم الأول ظهرت له تلك الحقيقة بلا صورة، فما يكاشف به الشخص في حال يقظته إن كان في غير صورة مثال فهو كشف، وإن كان في صورة مثال فهو واقعة. وإنما احتيج فيها للشيخ زيادة على ما سبق في الكشف؛ لأن تلك الصورة قد تكون لها حقيقة فتكون واقعة، وقد تكون مثالاً فارغًا خاليًا من الفائدة ليس وراءه معنى ولا حاصل

نظير أضغاث الأحلام التي تقع في المنام فلا تكون واقعة؛ لأن شرط صحة الواقعة الإخلاص في الذكر أولاً ثم استغراق في الذكر ثانيًا، وعلامة ذلك الزهد في الدنيا وملازمة التقوى.

فالمعنى حينئذ: ولا تنفرد عن الشيخ بواقعة جرت لك فإنك ضعيف السمع والبصر، والشيخ هو الناقد النافذ.

قال في «العوارف»: ومن آداب المريد مع الشيخ ألّا يستقل بواقعة وكشف دون مراجعة الشيخ، فإن الشيخ علمه واسع وبابه المفتوح إلى الله تعالى أكبر، فإن كانت الواقعة صحيحة أمضاها الشيخ، وإن كان فيها شبهة أزالها الشيخ. ثم أطال في ذلك.

وقال أيضًا: ومن لطائف ما سمعت من أصحاب شيخنا ﷺ أنه قال ذات يوم لأصحابه: نحن محتاجون إلى شيء من العلوم، فارجعوا إلى خلواتكم وما يفتح الله عليكم ائتوني به، ففعلوا، ثم جاءه من بينهم شخص يعرف بـ«إسماعيل البطائحي» ومعه كاغد عليه ثلاثون دائرة، وقال: هذا الذي فتح لي في واقعتي، فأخذ الشيخ الكاغد، فلم يكن إلا ساعة وإذا بشخص دخل ومعه ذهب، فقدمه بين يدي الشيخ، ففتح القرطاس وإذا هو ثلاثون صحيحًا، فنزل كل صحيح على دائرة وقال: هذا فتوح الشيخ إسماعيل، أو كلام هذا معناه.

وقال أيضًا: وقد تنكشف الحقائق في لبسة الخيال أو في صورة مثال، كما تنكشف الحقائق للنائم في لبسة الخيال، كمن رأى في المنام أنه قتل حية، فيقول المعبر: تظفر بالعدو.

ثم أطال في ذلك وبيَّن فيه الفرق بين الواقعة والكشف، وبين الواقعة الصحيحة والتي هي خيال محض، وأتى في ذلك بنحو الورقة من القالب الكبير.

وقد لخصت زبدته في شرح هذا البيت والذي قبله، والله أعلم. ثم قال:

وَفِرَّ إِلَيْهِ فِي الْمُهِمَّاتِ كُلِّهَا فَإِنَّكَ تَلْقَى النَّصْرَ فِي ذَلِكَ الْفَرِّ

معناه ظاهر.

قال في «العوارف»: وليعتقد المريد أن الشيخ باب فتحه الله إلى جناب كرمه، منه

يدخل ومنه يخرج وإليه يرجع، وينزل بالشيخ [حوائجه][1] ومهماته الدينية والدنيوية، ويعتقد أن الشيخ ينزل بالله الكريم ما ينزل المريد به، ويرجع في ذلك إلى الله للمريد كما يرجع المريد إليه.

وللشيخ باب مفتوح من المكالمة والمحادثة في النوم واليقظة، فلا يتصرف الشيخ في المريد بهواه، فهو أمانة الله عنده، ويستغيث إلى الله بحوائج المريد كما يستغيث بحوائج نفسه ومهام دينه ودنياه، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ [الشورى:٥١] فإرسال الرسول يختص بالأنبياء والوحي كذلك، والكلام من وراء حجاب بالإلهام والهواتف والمنام وغير ذلك للشيوخ. انتهى.

وقال أيضًا: ومن الأدب مع الشيخ أن المريد إذا كان له كلام مع الشيخ في شيء من أمر دينه أو دنياه لا يستعجل بالإقدام على مكالمة الشيخ والهجوم عليه حتى يتبين له من حال الشيخ أنه مستعد له ولسماع كلامه، فكما أن للدعاء أوقاتًا وآدابًا وشروطًا؛ لأنه مخاطبة لله تعالى فللقول مع الشيخ أيضًا آداب وشروط؛ لأنه من معاملة الله تعالى، ويسأل الله تعالى قبل الكلام مع الشيخ التوفيق لما يجب من الأدب. انتهى.

وقد سمعت الشيخ ﷺ **يقول**: الشيخ للمريد في درجة «لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ» فإيمانه متعلق به، وكذا سائر أموره الدينية والدنيوية، وأرباب البصائر يشاهدون ذلك عيانًا.

وكنت أخرج معه ﷺ كثيرًا وأنا لا أعرف درجته، فكان يقول لي: مثلك مثل من يظل يمشي على عالي أسوار المدينة وشرفاتها مع ضيق المحل الذي تجعل فيه رجلك وبعد محل السقوط، فلم أفهم معنى هذا الكلام إلا بعد حين، فكان بعد ذلك إذا جرى هذا الكلام على خاطري يحصل لي منه روع عظيم وخوف شديد.

وقلت له ذات يوم: إني أخاف من الله تعالى من أمور فعلتها.

فقال لي: ما هي؟ فذكرت له ما حصل.

فقال لي ﷺ: لا تخف من هذه الأشياء، ولكن أكبر الكبائر في حقك أن تمر عليك ساعة ولا أكون في خاطرك، فهذه هي المعصية التي تضرك في دينك ودنياك.

---

(١) في (ب): سوانحه.

وقلت له مرة: يا سيدي، إني بعيد من الخير.

فقال ﷺ: اطرح عنك هذا، وانظر إلى منزلتك عندي فعليها [تحمل][1].

وكنا معه ﷺ على حالة قلَّ أن يسمع بمثلها، لا ينزل [بنا][2] أمر مهم أو غير مهم إلا ذكرناه له، فيتحمله عنا عيانًا، ويريح خاطرنا منه بمجرد ذكره له.

وكان ﷺ يمازحنا ويضاحكنا، ويزيل الحياء عنا، ويفاتحنا بالأمور قبل أن نسأله عنها ويقول لنا: لا تجعلوني في مقام الشيخ، إنما أنا لكم بمنزلة الأخ، ومقام الشيخ لا تطيقون القيام بآدابه، فأنا أسامحكم وأجعلكم في حل من ذلك، واجعلوني بمنزلة الأخ تدوم الصحبة بيننا وبينكم. فالله يجازيه عنا أفضل الجزاء بمنه وكرمه.

ولو رمنا أن نشرح هذه النبذة التي أشرنا إليها من حال الشيخ ﷺ لطال الحال، والله أعلم. ثم قال:

وَلَا تَكُ مِمَّنْ يَحْسُنُ الْفِعْلُ عِنْدَهُ ... فَيَفْسُدُ إِلَّا أَنْ يَفِرَّ إِلَى الْكَرِّ

في هذا البيت تحذير من العجب الذي يضر بالعمل؛ أي: ولا تكن من الذين تحسن عندهم أعمالهم وتعجبهم فإنها تفسد بذلك؛ لأن العجب مفسد للأعمال.

وقوله: «**إلا أن يفر**» بالياء من أسفل في بعض النسخ، وفي بعضها بالتاء من فوق، والمعنى ظاهر عليهما؛ أي: لكن إذا فررت من ذلك العجب والاستحسان إلى الرجوع إلى الله تعالى فإن فعلك لا يفسد؛ لأنك إذا رجعت إلى الله تعالى تجده هو المتصرف فيك والمجري ذلك عليك، وأنك وعاء من جملة الأوعية لا فرق بينك وبين غيرك، وترى نفسك فيما صدر منك من الاستحسان كمن يفتخر بفعل غيره، فتستبدل العجب بالحياء من الله تعالى والخوف من مقته والشكر له على جزيل نعمته.

والعجب دليل على عدم قبول العمل حتى قال بعض العارفين: من علامة قبول العمل نسيانك إياه، وانقطاع نظرك عنه بالكلية، بدلالة قوله تعالى: ﴿**وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**﴾ [فاطر: ١٠].

---

(١) في (ب): تعمل.

(٢) سقطت من (أ).

قال: فعلامة رفع الحق تعالى ذلك العمل؛ لأنه لا يبقى عندك منه شيء، فإذا بقي في نظرك منه شيء لم يرتفع إليه.

وقال زين العابدين علي بن الحسين، رضي الله عنهما: كل شيء من أفعالك إذا اتصلت به رؤيتك فذلك دليل على أنه لم يقبل منك؛ لأن المقبول مرفوع مغيب عنك، وما انقطعت عنه رؤيتك فذلك دليل القبول. انتهى.

ثم قال:

وَمَنْ حَلَّ مِنْ صِدْقِ الْإِنَابَةِ مَنْزِلًا يَرَى الْعَيْبَ فِي أَفْعَالِهِ وَهْوَ مُسْتَبْرِ

أي: ومن حل ونزل من صدق الإنابة إلى الله والرجوع إليه الرجوع الكلي منزلاً، يرى العيب في أفعاله التي تقرب إلى مولاه بها وهو مستبرئ ـ أي: وهو بريء ـ والسين والتاء زائدتان، وإنما كان بريئًا من ذلك العيب الذي رآه؛ لكونه قد أتى بها على ما ينبغي شريعة وحقيقة في ظاهره وفي باطنه، لكنه يتهم نفسه ولا يأمن أن يكون قد خفي عليه شيء من دسائسها.

وقد قال أبو يعقوب إسحاق بن محمد النهرجوري ﷺ: من علامة من تولاه الله في أحواله أن يشاهد التقصير في إخلاصه، والغفلة في أذكاره، والنقصان في صدقه، والفتور في مشاهدته، وقلة المراعاة في فقره، فتكون جميع أحواله عنده غير مرضية، ويزداد فقرًا إلى الله ﷻ في قصده وسيره.

وقال أبو عمر إسماعيل بن نجيد ﷺ: لا يصفو لأحد قدم في العبودية حتى تكون أفعاله عنده كلها رياء وأحواله كلها دعاوى، فالنفس مجبولة على ضد الخير لولا فضل الله علينا ورحمته، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور:٢١] وقال عز من قائل: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف:٥٣].

وقال بعض السادات ﷺ: ما هناك إلا فضله، ولا نعيش إلا في ستره، ولو كشف الغطاء لكشف عن أمر عظيم، فلذا تبرأ الأكابر من أعمالهم الصحيحة فضلاً عن غيرها حتى قال أبو يزيد: لو صفت لي تهليلة واحدة ما باليت بعدها بشيء.

وقال أبو سليمان الداراني: ما استحسنت من نفسي عملاً فاحتسبته.

* **قلت**: هذا ما يتعلق بشرح الأبيات التي ذكرها صاحب «الرائية» في الشيخ المربي وآدابه وآداب المريد معه، وهي من أنفس ما يسمع، وينبغي للمريد أن يحفظ هذه القصيدة فإنها قصيدة منورة، فإن لم يمكنه حفظها كلها فليحفظ الأبيات المتعلقة بالشيخ المربي.

وصاحب «الرائية» هو الإمام أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن خلف القرشي التيمي البكري الصديقي، سلوي الأصل، ولد بـ«سلا» سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، ونشأ بـ«مراكش» واستوطن الفيوم من مصر ـ حرسها الله ـ وبها توفي في ربيع الأول سنة إحدى وأربعين وستمائة، ولقبه هناك «تاج الدين» وكنيته «أبو العباس».

كان ﷺ وافر الحفظ من علم البيان نحوًا وأدبًا، شاعرًا محسنًا، محققًا لعلم الكلام، بارعًا في أصول الفقه، متقدمًا في التصوف وإليه انقطع وعليه عول، وفيه صنف ونظم في مقاصده، وتدريج سلوكه قصيدته هذه التي سماها «أنوار السرائر وسرائر الأنوار» وأخذها الناس عنه [واشتهرت][1] في الأقطار لإجادة نظمها وضبطها.

قال صاحب «المد العينين»: إن هذه القصيدة حجة عند أهل الطريقة، ولم يزل المشايخ ﷺ يحضون عليها ويوصون تلامذتهم بالعمل بها، ثم نقل عن الشيخ أبي عبد الله محمد الهزميري ﷺ أنه كان كثيرًا ما يحض عليها أصحابه وجميع تلامذته شديد العناية بها، ويلتزم الخير للمداوم عليها.

قال: وكان هو يديم الكلام عليها ويشرح بعض مقاماتها.

وأخذ الناظم ﷺ عن جماعة بـ«مراكش» ثم جال في طلب العلم، وأخذ بـ«فاس» عن الإمام الأصولي، العابد الزاهد، أبي عبد الله محمد بن علي بن عبد الكريم، المعروف بـ«ابن الكتاني العبدلاوي» والشيخ الإمام العلامة النحوي أبي ذر مصعب ابن الإمام النحوي أبي عبد الله محمد بن مسعود بن أبي ركب الخشني الإشبيلي ثم الفاسي، من ذرية أبي ثعلبة الخشني ﷺ الصحابي المشهور، والشيخ أبي العباس ابن أبي القاسم بن القفال. ووصل إلى الأندلس فأخذ عن بعض أهلها، ثم شرق وحج.

---

(١) في (ب): وطارت.

وأخذ ببغداد عن الإمام العالم أبي محمد عبد الرزاق ابن قطب الصديقين وحجة الله للعارفين، محيي الملة والدين أبي محمد عبد القادر بن أبي صالح الشريف الحسني المعروف بـ«الجيلاني» والشيخ المحدث التاريخي أبي الحسن محمد بن أحمد بن عمران القطيعي، والشيخ أبي محمد قميص بن فيروز بن عبد الله [الحنبلي][1].

وأخذ علم الكلام عن الإمام الشيخ الكبير تقي الدين أبي العز مظفر بن عبد الله بن علي بن الحسين الأزدي الشافعي المعروف بـ«المقترح».

وأخذ أصول الفقه بالإسكندرية عن الشيخ الإمام علم الأعلام شمس الدين أبي الحسن علي بن إسماعيل بن حسن بن عطية الإبياري المالكي.

وأخذ التصوف ذوقًا وإشراقًا ببغداد عن شيخ شيوخ وقته، وقدوة أهل عصره، ترجمان الطريقة، وسلطان أهل الحقيقة، شهاب الدين أبي حفص، ويكنى أيضًا بـ«أبي عبد الله عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله القرشي التيمي البكري الصديقي» ثم الشافعي، المعروف بـ«السهروردي» صاحب «عوارف المعارف» التي هي أصل هذه القصيدة، والله أعلم.

وأخذ الطب عن أبي بيان.

وروى عنه الشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن إبراهيم القيسي السلاوي نزيل تونس، لقيه بالفيوم من مصر، والله أعلم.

---

(١) في (ب): الحسني.

فصل

وإذا فرغنا من شيخ التربية وآدابه وآداب المريد معه

فلنرجع إلى

الكلام على الأشياخ الذين ورثهم الشيخ ﷺ

فنقول:

سمعته ﷺ يقول: ورثت عشرة من الأولياء، وهم:

سيدي عمر بن محمد الهواري، المقيم على ضريح سيدي علي بن حرزهم نفعنا الله به، وسيدي عبد الله البرناوي، وكان من الأقطاب، وقد سبق في أول الكتاب كيفية التقائه بالشيخ ﷺ.

وسمعته ﷺ يقول: إن سيدي عبد الله البرناوي سقي بأنوار نيف وسبعين من أسماء الله الحسنى.

وسيدي يحيى صاحب الجريد، وكان من الأقطاب أيضًا، وكان شديد الاتباع في ظاهره وفي باطنه لشريعة النبي ﷺ وكان يتولى التصرف في جميع من يزور الصالحين الموتى، فهو ينظر في حوائجهم ويقضي ما قضاه الله منها.

قال لي ﷺ: هذا لما تكلمت معه في شأن بعض السادات الموتى ممن كثر زيارة الناس له وظهر النفع عليه، وشفاء المرضى عند ضريحه.

فقال لي ﷺ: إن قلوب أمة محمد ﷺ لها شأن عظيم عند الله، ولو أنها اجتمعت على موضع لم يدفن فيه أحد وظنت فيه وليًّا وجعلت ترغب إلى الله تعالى في ذلك الموضع، فإن الله تعالى يسرع لها بالإجابة.

وسيدي يحيى اليوم ـ يعني: يوم الحكاية ـ هو الذي يتولى التصرف في ذلك، وقد يقع هذا أيضًا في الأولياء الأحياء، فقد يكون الرجل مشهورًا بالولاية عند الناس وتقضى بالتوسل به إلى الله الحوائج، ولا نصيب له بالولاية، إنما قضيت حاجة المتوسل به على يد أهل التصرف، وهم ﷺ الذين أقاموا ذلك الرجل في صورة الولي؛ ليجتمع عليه أهل

الظلام مثله، وهم الذين يتصرفون تبعًا للقدر، فهو عندهم بمنزلة الصورة التي يجعلها صاحب الزرع في فدانه ليطرد بها العصافير، فهي تظن الصورة رجلاً فتهرب منه، وذلك في الحقيقة من فعل صاحب الفدان لا من فعل الصورة، فكذلك أهل التصرف ﷺ يقيمون ذلك الرجل ويجمعون عليه أهل الظلام مثله، والمتصرف فيهم خفي عنهم، ولم يظهر لهم؛ لأنه حق وهم لا يطيقون الحق.

وسمعته ﷺ يقول: جاء رجل إلى طريق مخوف بعد المغرب، وقد جلس له رجلان أحدهما في أول الشعبة، والآخر في وسطها، فلما أراد أن يدخل الشعبة وكان مشيخًا على بعض من لا شيء عنده فقال: يا سيدي، فلان قدمت عليك جاه سيدنا محمد ﷺ إلا ما فككتني من هذه الشعبة، وعدتك عليّ.

قال ﷺ: فسمعه بعض أهل التصرف وقد استعظم اسم النبي الشريف ﷺ وجاهه الذي قدمه على شيخه، فلم يكن له بد أن يقضي تلك الحاجة، فذهب بنفسه مع ذلك الرجل وآنسه في قلبه، وقطع معه تلك الشعبة وهو لا يراه، وطبع الله على الرجلين اللصين فلم يفعلا شيئًا، فلم يشك ذلك المريد أن شيخه هو الذي قضى حاجته، فلما وصل إليه دفع له أربعة مثاقيل وعدة، والله أعلم.

وسيدي منصور بن أحمد من أهل جبل حبيب، وكان أيضًا قطبًا يتصرف في أمر البحر.

وقال لي الشيخ ﷺ: أما ترى اللحم إذا قطعته ترتعد منه بعض اللحمات أحيانًا؟

فقلت: نعم.

فقال ﷺ: كذلك كانت ذات سيدي منصور ﷺ حين فتح الله عليه ترتعد جواهرها كلها إجلالاً لله تعالى ومهابة، وبقيت على ذلك مدة.

وسمعته ﷺ يقول: إني رأيت سيدنا إبراهيم خليل الرحمن على نبينا وعليه الصلاة والسلام يطلب الدعاء الصالح من سيدي منصور ﷺ.

وكم من فائدة علمية عرفانية حكاها لنا الشيخ ﷺ عن هذين القطبين الجليلين: سيدي يحيى، وسيدي منصور، ولكنا مفرطون فلا نسمع منه في أول معرفتي له إلا:

خرجت أنا وسيدي يحيى وسيدي منصور، وفعلت أنا وسيدي يحيى وسيدي منصور، وقال سيدي يحيى كذا وكذا، وقال سيدي منصور كذا وكذا، فكنا نزهد فيما نسمع حتى ظهر لنا التفريط في أمرنا، وعند ذلك وفقنا الله له، والحمد لله وله الشكر، على تقييد ما سمعته بعد ذلك، وضاع ما كان قبل ذلك، فإني ما اشتغلت بالتقييد إلا بعد وفاة هذين السيدين الجليلين رضي الله عنهما.

وسيدي محمد [اللهواج][1] من أهل «أنجرا» من الفحص، وكان قطبًا أيضًا، وسبق كيفية اجتماع الشيخ ﷺ معه، وكانت حكاية الشيخ ﷺ قليلة ما أعلمه حكى عنه إلا ثلاث حكايات، قد كتبت التي وقعت له معه في العين التي بدار ابن عمر وقد سبقت.

وسيدي أحمد بن عبد الله المصري وكان غوثًا، وسبقت الحكايات التي أوصى بها الشيخ ﷺ في أول الكتاب.

وسيدي علي بن عيسى المغربي، وكان قطبًا أيضًا، وكان مسكنه بجبل الدروز من أرض الشام، وحكى لنا الشيخ ﷺ حكاية طويلة في سبب انتقاله من أرض المغرب إلى أرض الشام، طال عهدي بها.

وسيدي محمد بن علي الكيموني[2] وسيدي محمد المغربي، وسيدي عبد الله [الجوَّاز][3] بجيم معقودة - وكان مسكنه بالدير- دير مراكش.

وزاد في آخر سنة تسع وعشرين وراثة رجل آخر من أكابر الأولياء، كما سمعت ذلك منه ﷺ، واسم الرجل سيدي إبراهيم لَـمْلَزْ ـ بفتح اللام وبعدها ميم مسكنة بعدها لام مفتوحة وبعد اللام زاي ساكنة ـ ذكر لي ﷺ اسم هذا الولي، وقال لي: اعقل عليه، ثم بعد مدة سألني عنه فوجدني قد نسيته، فذكره لي مرة أخرى ثم أوصاني عليه، ثم بعد مدة أخرى سألني عنه فوجدني أيضًا قد نسيته، فذكره لي مرة أخرى وزجرني، فقيدت اسمه وعلقت عليه، والحمد لله.

قال: وهذا الرجل من أهل الجزائر، بجيم معقودة.

---

(١) في (أ): السراج.

(٢) هكذا في الأصول، ولم أقف على ترجمته، وكذا من بعده.

(٣) في (أ): الجراز، والصواب المثبت.

ثم بعد ذلك هبنا أن نسأله عمن ورثه بعد ذلك.

ثم قلت للشيخ ﷺ: وهل يفترق ما ورثته منه؟

فقال ﷺ: ورثت من التسعة معرفة الله تعالى، وورثت من الأول معرفة الله.

ثم ضرب مثالاً بفارس على فرس، وقد اشتاق رجل إلى نعته، فلقيه بعض الناس وجعل ينعت له الفرس وصفة قوائمه، وكيفية لونه، وحالة جريه، وأن رقبته طولها كذا وكذا، وذكر له جميع حلية الفرس وكيف إجراء الفارس له، ولم يذكر من صفة الفارس شيئًا، والفرض أن نعته للفرس وجريه ليس مجرد خبر، بل يحصل معه عيان ومشاهدة للفرس وجريه ببركة الناعت، ثم جاء من ذكر له الفارس، ونعته له وذكر له حليته وصفته، وأزال عنه الحجاب حتى شاهده عيانًا.

وضرب لي مثلاً آخر مرة أخرى فقال: إن الذي حصل لي من سيدي عمر مثل أن يقول رجل لرجل: سر مع هذه الطريق فإنك تجد فيها الماء، ولم يذكر له أين الماء منها، فذهب وهو لا يدري أين الماء حتى جاء من عيَّن له موضع الماء وأوقفه عليه.

وقال لي مرة أخرى: مثل ما حصل لي من سيدي عمر كرجل صاد لرجل صيدًا وطرحه بين يديه وذهب وتركه، فلم يدر ما يفعل به حتى جاء رجل آخر بنار وحطب وأوقد له النار وأتاه بسكين، وقال له: خذ السكين واقطع بها ما شئت من اللحم وطيب وكل.

فقلت له: وهل كان سيدي عمر من القسم الثاني المفتوح عليهم؟

فقال: نعم، ولكن فتحه ضعيف.

فقلت: وهل يحضر الديوان؟

فقال: نعم، وليس كل من يحضر الديوان يعرف ما فيه، وما دخل وما خرج، وما زاد وما نقص.

فقلت: كأنه بمثابة مجالس العلم، فليس كل من يحضرها يعرف ما فيها.

فقلت: وكيف كان التقاؤك مع سيدي عمر؟.

فقال: شيخت غير واحد ممن لا سر معه، ثم إن الله تعالى جذب قلبي إلى سيدي عمر، وكان يجمعنا سيدي علي بن حرزهم، كان هو قيمه ونحن نأخذ صدقته، فرمقته فأعجبتني حالته، فجعلت أطلب له الورد وهو يتغافل عني، وأنا أزداد شوقًا وتشوقًا، حتى بت معه ليلة بضريح سيدي علي بن حرزهم، فوقعت الحكاية السابقة في تلقين الورد واجتماعه بسيدنا الخضر عليه السلام.

وسئل وأنا حاضر ﷺ عن فائدة الوِرد الذي يعطيه الأشياخ.

فقال ﷺ للسائل: تسألني عن الصادقين أم عن الكاذبين؟

فقال: عن الصادقين.

فقال ﷺ: فائدته أن الله تعالى حفظ على هذه الأمة دينها بهذه الشريعة المطهرة التي إذا فعلت في الظاهر حفظت الإيمان في الباطن، وإن الشيخ الصادق معمور الباطن بالمشاهدة مع الحق ﷻ حتى إن المريد إذا قال: لا إله إلا الله، قبل أن يلقى الشيخ الكامل يقولها بلسانه وقلبه غافل، والشيخ يقولها بالباطن؛ لعظيم مشاهدته، فإذا لقن المريد سرت حالته في المريد، فلا يزال يترقى إلى أن يبلغ مقام الشيخ إن قدر الله له ذلك.

ثم ضرب مثلاً بالحكاية الشهيرة التي وقعت لملك له ولد عزيز عليه ثم نزل به ضر عظيم، فجمع الأطباء لدواء ولده وتوعدهم بوعيد شديد إن لم يبرأ ولده، فاتفق الأطباء على أن دواءه في عدم أكل اللحم، فذكروا ذلك للولد فأبى عليهم وقال: لا أترك اللحم ولو خرجت روحي في هذه الساعة، فحار الأطباء ودهشوا في أمره، ونزل بهم ما لا يطيقونه حيث امتنع الولد من اتباع سبب الشفاء، ولحوا عليه المرة بعد المرة فلم يزده ذلك إلا نفورًا، فذهب رجل منهم واغتسل وتضرع إلى الله تعالى، ونوى ألَّا يأكل اللحم ما دام المريض لا يأكله، ثم جاء إلى المريض فقال له: لا تأكل اللحم، فامتثل أمره وسمع قوله وبرئ لحينه، فتعجب بقية الأطباء من ذلك، فأخبرهم بما فعل.

فقال ﷺ: وأيضًا فإن أهل العرفان من أولياء الله تعالى إذا نظروا إلى ذوات المحجوبين فرأوا ذاتًا طاهرة، قابلة لحمل سرهم مطيقة له، فإنهم لا يزالون معها بالتربية بتلقين الذكر وغيره، ويكون هذا المطيق للسر هو مقصود الشيخ لا غير.

فإذا جاء إلى الشيخ غيره ممن ليس بمطيق وطلب منه التلقين، فإنه لا يمتنع؛ لأنه لا يقطع على أحد؛ فلذا تجد الشيوخ يلقنون كل أحد مطيقًا كان أم لا، مع فائدة أخرى تظهر في الآخرة، وذلك أنه ﷺ يكون بيده يوم القيامة لواء الحمد وهو نور الإيمان، وجميع الخلائق خلفه من أمته ومن غير أمته مع سائر الأنبياء، وتكون كل أمة تحت لواء نبيها، ولواء نبيها يستمد من لواء النبي ﷺ، وهم مع أممهم على أحد كتفيه، وأمته المطهرة على الكتف الآخر، وفيها الأولياء بعدد الأنبياء، ولهم ألوية مثل ما للأنبياء، ولهم من الأتباع مثل ما للأنبياء، ويستمدون من النبي ﷺ، ويستمد أتباعهم منهم كحال الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فالمريد إذا لم يكن مطيقًا فإنه ينتفع في الآخرة بشيخه الذي لقنه.

قال ﷺ: ولا ينتفع منه بمجرد التلقين فقط ومطلق تلفظه بالذكر، بل حتى يتعلم منه كيفية الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، وينتفع منه بعض النفع في الباطن.

وسمعت من غير الشيخ ﷺ حكايات تقرب من قصة الأطباء، وهي أن عبدًا مملوكًا لرجل استشفع ببعض أهل الخير ليكلم سيده لعله يعتقه، فلم يجبه لذلك حتى مر عليه أزيد من عام، ثم ذهب معه إلى سيده فكلمه في عتقه فأجابه إلى ذلك وأعتقه، ففرح العبد بالحرية واستبشر بها، وقال للشفيع: تأخرت بشفاعتك هذه المدة، ولو كلمته في أول ما رغبتك لأعتقني وكان أجر هذه المدة في ميزانك، فما الذي حملك على التأخير حتى مضت هذه المدة؟ فقال الشفيع: أنا لا أكلم أحدًا في أمر إلا إذا علمت به، ولما رغبتني أن أكلم سيدك لم يكن عندي عبد أعتقه، فلم أزل أتكسب في تلك المدة حتى جمعت قيمة رقيق، ثم اشتريته وأعتقته، وبعد ذلك كلمت سيدك فقبل رغبتي، ولو أني كلمت سيدك قبل أن أعتق ما ظننته يفعل ما نريد، والله أعلم.

وسمعته ﷺ **يقول في اسم الله العظيم الأعظم**: إنه كمال المائة وليس من التسعة والتسعين، وإن كثيرًا من معانيه في الأسماء التسعة والتسعين، وأنه هو ذكر الذات لا ذكر اللسان، فتسمعه يخرج من الذات كطنين النحاس الصفر، وهو يثقل على الذات ولا تطيق الذات ذكره إلا مرة أو مرتين في اليوم. فقلت: ولم؟

فقال ﷺ: لأنه لا يكون إلا مع المشاهدة التامة وذلك ثقيل على هذه الذات، وإذا ذكرته الذات فقد العالم كله هيبة وجلالاً ومخافة.

قال ﷺ: وكان في السيد عيسى ابن مريم ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ قوة على ذكره، وكان يذكره في اليوم أربع عشرة مرة، والله أعلم.

وسمعته ﷺ **يقول في أسماء الله الحسنى**: إن معانيها حصلت للأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ من مشاهدات، فمن شاهد معنى وضع له اسمًا، فالمعاني ظهرت لهم على قدر مشاهدتهم في الله ﷻ، والأسماء خرجت منهم بحسب ذلك.

قال ﷺ: فجميع الأسماء حصلت بوضع الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وسيدنا إدريس عليه السلام أول من وضع عليمًا وقويًا وعظيمًا ومنانًا، وهكذا كل نبي وضع شيئًا منها، ولكنهم وضعوها بلغتهم، ومزية القرآن أنه جمعها كلها وأتى بها مع ذلك بلغة العرب لا بألسنة الأنبياء المتقدمين.

قال ﷺ: وأول من وضع اسم الجلالة أبونا آدم ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ وذلك أن الله ﷻ لما نفخ فيه الروح نهض مستوفزًا، فقام على رجل واتكأ على ركبة الرجل الأخرى، فحصلت له في تلك الحالة مع ربه مشاهدة عظيمة، فأنطق الله لسانه بلفظ يؤدي الأسرار التي شاهدها من الذات العلية، فقال: الله تعالى، وقد خرج في علمه ﷻ أنه يتسمى بهذه الأسماء الحسنى؛ فلذا أجراها على لسان أنبيائه وأصفيائه.

قال ﷺ: ولو وضع سيد الوجود ﷺ للمعاني التي حصلت له من مشاهدته التي تطاق أسماء لذاب كل من سمعها، ولكنه ﷻ لطيف بعباده، والله أعلم.

* **قلت**: وإياك أن تظن أن هذا الكلام فيه مخالفة للعقيدة، وهي أن الأسماء الحسنى قديمة، فإن المراد بقدمها: قدم معانيها لا ألفاظها الحادثة؛ لأن كل لفظ عرض، وكل عرض فهو حادث، لا سيما إذا كان سيلها مثل الألفاظ والأصوات وذلك واضح، والله أعلم.

وسمعته ﷺ **يقول**: إن في اسم الجلالة ثلاثة أسرار:

* **الأول**: إن مخلوقاته تعالى لا حد لها وأنها مختلفة، فتنقسم إلى إنس وجن وحيوان وغير ذلك من الأنواع التي لا يعلمها أكثر الخلق، ومع هذه الكثرة فهو تعالى واحد في ملكه لا مدبر معه ولا وزير له، فهو وحده تعالى يتصرف فيها بجملتها، ولا يفوته منها

شيء، ولا يخرج عن قدرته تعالى منها واحد، فهو قاهر للكل محيط به كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ [البروج: ٢٠].

* **الثاني**: إنه يتصرف فيها كيف شاء، فيغني هذا ويفقر هذا، ويعز هذا ويذل هذا، ويجعل هذا أبيض وهذا أسود، ويجيب سؤال هذا ويمنع هذا، ويفرق بينهما في الأزمنة والأمكنة.

وبالجملة: فهو كل يوم في شأن ولا يشغله شأن عن شأن، والاختيار له لا للمخلوقات، فهو يفعل ما يشاء لا ما تشاء، ﷻ لا إله إلا هو.

* **الثالث**: إنه تعالى مقدس منزه، لا يكيف ولا يشبه بشيء من المخلوقات، ومع ذلك فله السطوة والقهر حتى إنه لولا الحجاب الذي حجب به المخلوقات لرجعوا هباء منثورًا، ولتهافتوا وصاروا دكًا رميمًا عند تجليه تعالى لهم، بل لا يبقى لهم أثر حتى يقول القائل: ما كان في هذا العالم شيء من المخلوقات أصلاً، إلا أنه تعالى برحمته وعظيم حكمته لما سبق في قضائه أن يوصل أهل كل دار إليها إذا أراد أن يخلق مخلوقًا أي مخلوق كان لا يخلقه حتى يخلق حجابه قبله.

وقال ﷺ: وهذه الأسرار يعلمها أرباب البصيرة من مجرد النطق باسم الجلالة من غير احتياج إلى مشاهدة شيء من المخلوقات.

فقلت: ومن أين ذلك؟

فضرب ﷺ لنا مثلاً فهمنا من معناه أنه إنما كان ذلك من حيث إنه اسم جامع لجميع الأسماء، والله تعالى أعلم.

وسمعته ﷺ **يقول**: الله تعالى مقدس منزه لا يشبه بشيء من المخلوقات، وكل ما يصوره الفكر فالله تعالى بخلاف ذلك.

قال ﷺ: لأن كل ما يصوره الفكر فهو موجود في مخلوقات ربنا ﷻ؛ لأن الفكر لا يصور إلا ما هو مخلوق، فكل ما في الفكر له مثل، والله لا مثل له.

فقلت: فإن الفكر يتصور إنسانا مقلوبًا يمشي على رأسه.

فقال ﷺ: والله لقد شاهدته يمشي كما تصوره الفكر ويده ساترًا بها فرجه، فهي بمنزلة الحجاب له، ولا يزيلها إلا إذا أراد قضاء حاجته من حدث أو جماع.

قال ﷺ: ولقد جلست ذات يوم مع سيدي محمد بن عبد الكريم البصراوي، فقال لي: تعال حتى نصور في أفكارنا أغرب صورة، ثم ننظر في مخلوقات الله أهي موجودة أم لا؟ فقلت: صور ما شئت، فقال: نصور مخلوقًا يمشي على أربع وهو على صورة جمل، وظهره كله أفواه كأفواه العكروشة التي في جنبها، وعلى ظهره صومعة على لون مخالف للونه صاعدة إلى فوق، وفي رأسها شرفات أي: من شرفتها يبول ويتغوط، ومن شرفة أخرى يشرب، وبين الشرفات صورة إنسان برأسه ووجهه وجميع جوارحه، فما فرغ من تصويره حتى رأينا هذا المخلوق وله عدد كثير، وإذا بالذكر منه [ينزو] على الأنثى فتحمل منه، وفي عام آخر [تنزو][1] عليه الأنثى بأن ينقلب الحال فيرجع الذكر أنثى والأنثى ذكر.

❁ **قلت**: وهذا من أغرب ما يسمع، والله أعلم.

وسمعته ﷺ يتكلم في المشاهدة ويعظم أمرها، ويشير إلى عجز أكثر الخلق عنها، ويذكر الأسباب في عجزهم، إلى أن حكى لنا عن نفسه حكاية.

فقال ﷺ: لقيت بعض أوليائه تعالى في آخر سنة سبع وعشرين، فقلت: أدع الله تعالى لي أن يرزقني مشاهدته، فقال لي: دع عنك هذا ولا تطلبها منه تعالى حتى يكون هو الذي يعطيها لك من غير سؤال، فإنه إن أعطاها لك من غير سؤال أعانك عليها وأعطاك القوة عليها قبل أن تنزل هي بك، وإذا جعلت تسألها منه ﷻ وتكثر منه، فإنه لا يخيب سؤالك ولكن تخاف أن يكلك إلى نفسك فتعجز عنها.

قال: فقلت: اطلبها لي فإني أطيقها، فقال لي: انظر إلى عالم الإنس، فنظرت إليه، فقال: اجمعه كله بين عينيك حتى يكون في مثل دور الخاتم، فقلت: جمعته، فقال: انظر إلى عالم الجن وافعل به كذلك، فقلت: فعلت، فقال: انظر إلى عالم الملائكة ملائكة الأرض والسماوات والعرش وافعل بهم كذلك، فقلت: فعلت.

قال: وجعل يعدد العوالم كلها عالمًا عالمًا حتى عد أنواعًا كثيرة، وذكر عالم الجنة

---

(١) في (ب): تجري.

وجميع ما فيه، وعالم النيران وجميع ما فيه، ويأمرني أن أجمع ذلك بين عيني وأنا أجمعه وأقول: فعلت.

ثم قال: انظر إلى هذا الذي بين عينيك مجموعًا، وانظر إليه نظرة واحدة، واجتهد هل تقدر على استحضار الجميع في تلك النظرة الواحدة؟ ففعلت، فلم أقدر، فقال لي: أنت لم تطق أن تشاهد هذه المخلوقات، وعجزت عن استحضارها في نظرك، فكيف مشاهدة الخالق ﷻ ؟.

فعلمت الحق، وبكيت بدموع القلب على حرصي على شيء لا أطيقه.

قال ﷺ: واستحضار هذه المخلوقات في نظر واحد لا يطيقه بشر، ولا يقدر عليه إنسان.

قال ﷺ: وكذا من يرى النبي ﷺ من أولياء الله تعالى في اليقظة، فإنه لا يراه حتى يرى هذه العوالم كلها، ولكن لا بنظر واحد.

وقال لي ﷺ **في أول ما لقيته وتكلمت معه في الروح:** إنه لا يحيط بها عاقل، ولا يعرف حقيقتها إلا إذا كوشف بالعوالم كلها قبل أن يعرفها، ومتى بقي عليه بعضها ولم يكاشف به ثم كوشف بالروح فإنه يفتتن.

قال ﷺ: ولو جلست مع أنجب عالم وجعل يسألني عن الروح وأنا أجيبه عن سؤالاته، فإنه تمر عليه أربع سنين ولا تنقطع اعتراضاته فيها؛ لكثرة إشكالاتها وخفاء أمرها، والله أعلم.

وسمعته ﷺ يضرب مثلاً في كون العبد لا يطيق معرفة ربه ﷻ على ما هو عليه في كبريائه وعظمته، فيقول: إن الآنية من الفخار لو أمدها الله تعالى بالإدراك، وسألها سائل عن صانعها المعلم الذي صنعها كيف هو؟ وكيف طوله؟ وكيف لونه؟ وكيف عقله؟ وكيف إدراكه؟ وكيف سمعه؟ وكيف بصره؟ وكم حياته في هذه الدار؟ وما هي الآلات التي صنعها بها؟ إلى غير ذلك من أوصاف المعلم صانعها الظاهرة والباطنة، فإنها لا تطيق معرفة ذلك، ولا تطيق ذاتها حمل تلك المعارف، ولا يطيق مصنوع أبدًا معرفة صفات صانعه على ما هو عليه.

قال ﷺ: فإذا كان هذا العجز في حادث مع حادث، فما بالك بالصانع القديم ﷻ؟ فلا يطيق مخلوق أي مخلوق كان معرفته بالحقيقة، لا في هذه الدار ولا في تلك الدار أبد الآبدين ودهر الداهرين، والله أعلم.

وسمعته ﷺ **يقول**: إن الذكر فيه ثقل على الذات أكثر من العبادة.

قال: والمراد بالذات: الذات الخبيثة، فإنها مسقية بماء الظلام، والذكر يسقيها بالنور وهي لا تقبله بالظلام الذي فيها، فهو يريد أن يقلبها عن طبعها ويخرجها عن حقيقتها، كمن يريد أن يجعل في المرأة طبع الرجل، ويجعل في الرجل طبع المرأة، وكمن يريد أن يجعل طعم القمح وحلاوته ومذاقه في غيره من الحبوب، فلا تسأل عن تدبيره وحيرته.

قال: بخلاف العبادة فإنها شغل لظاهر الذات فهي بمنزلة الخدمة بالفاس، فالثقل فيها إنما هو من جهة تعب الذات وكللها، والله أعلم.

وسمعته ﷺ **يقول**: إن في أسمائه تعالى اسمًا إذا سقي العبد بنوره بكى [بكاء] دائمًا.

فقلت: وما هو؟ فقال: القريب[1].

---

(١) قال المحقق سيدي أبي برجان: اسمه: القريب جل وعز، يقال من ذلك: قرب قربًا فهو قريب، والقرب يكون للرجل والأنثى والواحد والجمع، والقربان ما تقرب به إلى الله ﷻ، ويقال: أتيته قراب العشي، وإناء قربان إذا قرب من الامتلاء، ويقال لوزير الملك: قربان ويجمع على قرابين، ويقال: ما قربت الأمر قربانًا ولا قربًا.

الاعتبار: القرب نقيض البعد، والله ﷻ قريب من جميع خليقته بمعاني الخلقة والتدبير، قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]، فالله ﷻ أقرب إلى المخلوق من نفسه ومن حياته، ومن مجرى الروح فيه، وأقرب من القرب؛ لأنه فاعل ذلك كله، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف:٢١] له الصفات العلا وللمخلوق مجازها.

وأما قربه من عباده المؤمنين فعلى قدر تحققهم في صفات الإيمان والإسلام ومعاني التطيب والطهارة والتزلف لديه بطاعته، ومعنى قربه جل وعز منهم سرعة إجابته لدعائهم، وسماعه لنجواهم، وعلمه بخفايا ضمائرهم وشهوده لأحوالهم كلها، وحضوره معهم وأنه ليس بالغائب عنهم، ولا بالعازب عنه شيء في السماوات ولا في الأرض، ليس في معرفة قربه مسافة ولا في العلم أمم ولا ناحية. وقد يكون القرب نقيض الفظاظة والغلظة، بمعنى أنه ودود لأوليائه، مودود في القلوب مجيب إليها، ويشير إلى هذا المعنى من القرب قول صالح عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود:٦١]. [شرح الأسماء ص٢٧٠] بتحقيقنا.

فقلت: كأنه إنما بكى؛ لأن رجوعه من غفلته إلى ربه بمنزلة من رجع من سفره إلى أعز خلق الله عنده كأمه مثلاً، فتراه يبكي إذا رآها.

فقال ﷺ: بكاؤه مع أمه محض فرح وسرور، ومع ربه ﷻ فيه ذلك وشيء آخر، وهو الحياء العارض له من تذكره مخالفة أوامر ربه زمان غفلته.

قال ﷺ: ومن أسمائه تعالى اسم إذا سقي العبد بنوره ضحك دائمًا أبدًا، وكان بمنزلة من جاءه جماعة ـ ولنفرضهم ستين رجلاً مثلاً ـ فأزالوا ثيابه وجعلوا يدغدغونه ويغمزونه بأصابعهم في مواضع ضحكه، وهو بين أيديهم لا يقدر على الخلاص منهم.

فقلت: وما هو هذا الاسم؟ **فقال**: المتعالِ.

ثم أدركتني هيبة منعتني من تمام السؤال الذي في خاطري؛ إذ كان مرادي أن أسأله عن أنوار الأسماء الحسنى كلها.

قال ﷺ: ولا زمان أصعب على الولي من زمان سقيه بأنوار الأسماء؛ لاضطراب ذاته بين مقتضياتها، فكل اسم يقتضي منه خلاف ما يقتضيه الآخر.

قال ﷺ: ومنهم من يُسقى بواحد فيدوم حكمه عليه من ضحك دائمًا وبكاء دائمًا أو غير ذلك، ومنهم من يسقى باثنين، ومنهم من يسقى بأكثر من ذلك.

فقلت: وبكم سقيتم أنتم؟ فقال ﷺ وهو الصادق فيما يقول: سقيت بسبعة وتسعين اسمًا بالمائة كلها إلا ثلاثة.

فقلت: إنما هي تسعة وتسعون.

فقال ﷺ: والمكمل للمائة لم يعد فيها؛ لأن الناس لا يطيقونه، وهو اسم الله العظيم الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطي.

وقد سبق كلامه ﷺ في هذا الاسم، وهو دال على معرفته به غاية، فإنا رأينا من الأولياء الصادقين ـ ﷺ ونفعنا بهم ـ وسمعت كلامهم في هذا الاسم الأعظم فما سمعت فيه مثل كلامه ﷺ ولا كتبت فيه كل ما سمعته في شأنه[1].

---

(١) قال الشعراني في «مختصر الفتوحات»: وقال: أسماء الله تعالى كلها عظيمة، فاصدق رجاء من أي اسم

قال ﷺ: ولا يسقى بهذا العدد؛ يعني: العدد الذي سقي هو به، إلا واحد من الأولياء.

* **قلت**: وهو الغوث، ثم هذا الذي قاله في أول الأمر.

وسمعت منه في آخر أمره ﷺ: إنه سقي بالعدد كله ـ أعني: المائة ـ وأن السقي بها ينقسم إلى قسمين:

أحدهما: في مقام الروح، فمن الأولياء من يسقى بواحد، ومنهم من يسقى بأكثر، ولا يكمل المائة كلها إلا الغوث السقي.

الثاني: في مقام السر.

قال ﷺ: ولا يستكمل المائة فيه مخلوق من المخلوقات إلا سيد الوجود ﷺ(١).

=

إلهي شئت، وحُكي أن أبا يزيد البسطامي قال لإنسان سأله أن يعلمه الاسم الأعظم! فقال: أرني الاسم الأصغر حتى أريك الأعظم كأنه يوبخه على ذلك.

قال: وذلك أن الأسماء إنما وضعت للدلالة، وقد يمكن فيها الاشتراك، وكل ما في الكون دليل على الله، وأكمل الأدلة: الإنسان، فالإنسان اسم من أسماء الله لدلالته على الله المسمى.

(١) اعلم أن (الأسماء الحُسْنَى) هي الدلائل مصدر وصف به، أو مؤنث أحسن، فأفرد؛ لأنه وصف جمع ما لا يعقل، فيجوز فيه الإفراد والجمع، وحسن أسمائه تعالى هو بتحسين إطلاقها شرعًا، مع تضمنها معانٍ حسانٍ شريعةً من المدح والتعظيم والتحميد، قال الله تعالى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف:١٨٠]. قال القاضي ابن العربي- رحمه الله تعالى: لأنها دلالة على معان هي أحسن المعاني، والمراد بها الألفاظ، وقيل الصفات: ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠]، وسموه بتلك الصفات ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف:١٨٠]، واتركوا تسمية الزائغين فيها الذين يسمونه بما لا توفيق فيه؛ إذ ربما يوهم معنى فاسدًا كقولهم: ما نعرف إلا رحيم اليمامة، أو ذروهم واتخاذهم فيها بإطلاقها على الأصنام، واشتقاق أسمائها منهم: كاللات من الله، والعزى من العزيز، ولا توافقوهم عليه، أو اعرضوا عنهم، فإن الله مجازيهم، كما قال: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٨٠]، انتهى.

ويحتمل أنه أراد التسعة والتسعين، المشار إليها بحديث: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا، مائة إلا واحد من أحصاها دخل الجنة**»، «إنه وتر يحب الوتر»، وفي رواية: «**من حفظها**»، وقد استخرجها بعض العلماء من القرآن العظيم، وبعضهم من السنة. وخرج الترمذي ـ رحمه الله تعالى ـ في «جامعه» تعيين هذه الأسماء، فروى عن إبراهيم بن يعقوب عن صفوان بن صالح عن الوليد بن مسلم عن شعيب بن أبي حمزة عن أبي الزناد عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى تِسْعَةً

=

وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً غَيْرَ وَاحِدٍ مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ الْغَفَّارُ الْقَهَّارُ الْوَهَّابُ الرَّزَّاقُ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ الْقَابِضُ الْبَاسِطُ الْخَافِضُ الرَّافِعُ الْمُعِزُّ الْمُذِلُّ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ الْحَكَمُ الْعَدْلُ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ الْحَلِيمُ الْعَظِيمُ الْغَفُورُ الشَّكُورُ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ الْحَفِيظُ الْمُقِيتُ الْحَسِيبُ الْجَلِيلُ الْكَرِيمُ الرَّقِيبُ الْمُجِيبُ الْوَاسِعُ الْحَكِيمُ الْوَدُودُ الْمَجِيدُ الْبَاعِثُ الشَّهِيدُ الْحَقُّ الْوَكِيلُ الْقَوِيُّ الْمَتِينُ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ الْمُحْصِي الْمُبْدِئُ الْمُعِيدُ الْمُحْيِي الْمُمِيتُ الْحَيُّ الْقَيُّومُ الْوَاجِدُ الْمَاجِدُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ الْقَادِرُ الْمُقْتَدِرُ الْمُقَدِّمُ الْمُؤَخِّرُ الْأَوَّلُ الْآخِرُ الظَّاهِرُ الْبَاطِنُ الْوَالِيَ الْمُتَعَالِي الْبَرُّ التَّوَّابُ الْمُنْتَقِمُ الْعَفُوُّ الرَّءُوفُ مَالِكُ الْمُلْكِ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ الْمُقْسِطُ الْجَامِعُ الْغَنِيُّ الْمُغْنِي الْمَانِعُ الضَّارُّ النَّافِعُ النُّورُ الْهَادِي الْبَدِيعُ الْبَاقِي الْوَارِثُ الرَّشِيدُ الصَّبُورُ». وفي رواية أبي الشيخ وابن مردويه معًا في التفسير والحاكم وأبي نعيم عنه أيضًا بعض زيادات ونقص في سردها، وكذلك وقع في رواية ابن ماجه عنه أيضًا. قال بعض العلماء: ويحتمل أن يكون ذلك مدرجًا من كلام أبي هريرة، سمعها آحادًا فنسقها، فحصل بعض اختلافات في الروايات من تقديم وتأخير، وزيادة ونقص.

قال شارح «الدلائل»، وقال الخطابي على قوله في أول الحديث: «إن لله تسعة وتسعين اسمًا، من أحصاها دخل الجنة»، في هذا الحديث الكريم من الأحكام إثبات هذه الأسماء المحصورة بهذا العدد، وليس فيه ما يدل على نفي ما عداها، وإنما وقع التخصيص بالذكر لهذه الأسماء؛ لأنها أشرف الأسماء، وأبينها معانٍ وأظهرها. قال: فجملة قوله قضية واحدة لا قضيتان، ويكون تمام الفائدة خبر إنَّ، وهو قوله: «من أحصاها دخل الجنة»، لا في قوله: «تسعة وتسعين اسمًا» وهو بمنزلة قولك: إن لزيد تسعة وتسعين درهمًا، أعدها للصدقة، أو: من زاره أعطاه إياها، فهذا لا يدل على أنه ليس عنده من الدراهم غيرها، ولا أكثر منها، وإنما يدل على أن الذي أعدَّه زيد من الدراهم للصدقة أو للعطية من ذلك العدد المذكور.

قال: ويؤيد هذا التأويل ما ذكر في حديث ابن مسعود في دعائه: «أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك» الحديث، قال غيره، ويؤيد قوله ﷺ: «وبأسماء الله الحسنى كلها ما علمت منها وما لم أعلم»، وقوله ﷺ: «لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»، وقوله في حديث الشفاعة: «فيفتح على من خافه وحسَّن الثناء عليه، ما لا أقدر عليه إلا أن يلهمنيه الله ﷻ»، أو كما قال ﷺ.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠]، «ثم الإحصاء صادق بالعدّ والحفظ، والعلم والفهم، والتعبد والتعلق، والتخلق والتحقق، ووجوه ذلك لا تنحصر من حيث التحقق تفصيلاً. فتتفاوت رتب المعارف من أجل ذلك تفاوتًا خارجًا عن الإحاطة والضبط، وكان الكلام على الأسماء من العلوم المكنونة، والأسرار المصونة التي ضنَّ بها عن غير أهلها، وأُعطيت لمن جعل نفسه أقل مهرها»، قاله بعض العارفين، انتهى.

وقال سيدي محمد القونوي ﷺ في مقدمة «شرح الأسماء»: وصح عن المخبر الصادق ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسمًا، مائة إلا واحدًا، من أحصاها دخل الجنة»، وقوله: «مائة إلا واحدًا من أحصاها دخل الجنة»، وقوله: «مائة إلا واحدًا» على وجه التأكيد، كقوله تعالى: ﴿ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا

* **قلت:** وفي طي هذا الكلام أسرار وأنوار يعرفها أربابها، رزقنا الله رضاهم، والله أعلم.

وسمعته ﷺ يتكلم على أسمائه تعالى، وعلى الذين يذكرونها في أورادهم، **فقال** ﷺ: إن أخذوها عن شيخ عارف لم تضرهم، وإن أخذوها عن غير عارف ضرتهم.

فقلت: وما السبب في ذلك؟

فقال ﷺ: الأسماء الحسنى لها أنوار من أنوار الحق ﷻ، فإذا أردت أن تذكر الاسم فإن كان مع الاسم نوره وأنت تذكره لم يضرك، وإن لم يكن مع الاسم نوره الذي يحجب العبد من الشيطان حضر الشيطان وتسبب في ضرر العبد، والشيخ إذا كان عارفًا وهو في حضرة الحق دائمًا، وأراد أن يعطي اسمًا من أسماء الله الحسنى لمريده أعطاه ذلك الاسم مع النور الذي يحجبه، فيذكره المريد ولا يضره، ثم هو؛ أي: النفع به على النية التي أعطاها الشيخ ذلك الاسم بها، فإن أعطاه بنية إدراك الدنيا أدركها، أو بنية إدراك الآخرة أدركها، أو بنية معرفة الله تعالى أدركها، وأما إن كان الشيخ الذي يلقن الاسم محجوبًا، فإنه يعطي مريده مجرد الاسم من غير نور حاجب، فيهلك المريد، نسأل الله السلامة.

فقلت: فالقرآن العزيز فيه الأسماء الحسنى، وحملته يتلونه ويتلون الأسماء الحسنى التي فيه دائمًا ولا تضرهم، فما السبب في ذلك، مع أنهم يأخذونها عن شيخ عارف؟

=

﴿رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٦] فقيده على التأكيد عند أكثر العلماء، وهو أبعد عن التصحيف في الكتابة؛ لأن التسعة والتسعين تشبه في الكتابة السبعة والسبعين، فما زال الالتباس بالقيد، وأما قوله ﷺ: «من أحصاها» عند علماء الظاهر هو بمعنى: العلم، وهو معرفة ألفاظها ومعانيها، والعثور على حقائق نتائجها، وآثارها، وعند أهل الله: هو الاتصاف بها، والظهور بحقائقها والعثور على مدارج نتائجها، بحيث يصدق عليهم إطلاق أعيانها. كما أنه تعالى وصف نفسه بأنه خير الناصرين، وخير الحاكمين، وخير الحافظين، وخير الرازقين. وأحسن الخالقين، وأخبر عن نبيه أنه رؤوف رحيم، ففي أمثال هذه التنبيهات مجال متسع لأهل العناية من أرباب القلوب، وأصحاب الكشف والشهود، فيتصفون بها نعتها لهم وبهم، وينصبغون بصبغ آثارها في سلوكهم على مناهج السنن المشروعة، وبسيرهم على مدارج طريقة أهل الولاية، والتخلق بالأخلاق الإلهية، ويصير ذلك قربة لهم إليه، ووسيلة لديه، نسأل الله الكريم المنان أن يجعلنا من أهله، فإنه ولي ذلك؛ لأنه ما أولى من ولي إلا من هو من ذوي الأهلية.

فقال ﷺ: سيدنا ونبينا ومولانا محمد ﷺ أرسله الله بالقرآن لكل من بلغه القرآن في زمانه ﷺ إلى يوم القيامة، فكل تال للقرآن فشيخه فيه هو النبي ﷺ، فهذا سبب حجب حملة القرآن نفعنا الله بهم.

ثم هو ﷺ لم يعط لأمته الشريفة القرآن إلا بقدر ما يطيقونه ويعرفونه من الأمور الظاهرة التي يفهمونها، ولم يعطهم القرآن بجميع أسراره وأنواره وأنوار الأسماء التي فيه، ولو كان أعطاهم ذلك بأنواره لما عصى أحد من أمته الشريفة، ولكانوا كلهم أقطابًا، ولما تضرر أحد بالأسماء قط.

قال ﷺ: وفي سورة «يس» اسمان في أولها، وهما: العزيز الرحيم، واسمان في وسطها وهما: العزيز العليم، وفي «ص» اسمان، وهما: العزيز الوهاب، وهذه الأسماء صالحة لخير الدنيا وخير الآخرة.

قال ﷺ: وفي سورة الملك قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤] وهو نافع لمن نزل به فقر أو ضر أو جهل أو بلاء أو [معصية][1]، فإذا أكثر من تلاوة الآية فإن الله تعالى بمنِّه وفضله وكرمه يعافيه مما نزل به، والله أعلم.

* **قلت**: وقد شاهدت بعض أصحابنا ممن نزل به الحب [المعروف عند العامة بالبيش من الأدواء المعضلة][2] فجاء إلى الشيخ ﷺ وهو في قيد حياته فشكا له ذلك وخاف منه خوفًا شديدًا، فأمره ﷺ بتلاوة الآية الشريفة، فرفعه الله عنه من حيث لا يحتسب، والله أعلم.

وسمعته ﷺ **يقول في سبب الحضرة**: إن الحضرة لم تكن في القرن الأول؛ يعني: قرن الصحابة، ولا في القرن الثاني؛ يعني: قرن التابعين، ولا في القرن الثالث؛ يعني: قرن تابع التابعين، وهذه القرون الثلاثة هي خير القرون كما شهد به الحديث الشريف.

وسبب ذكره لهذا الكلام أن سائلاً سأله عن الحضرة، **قال** ﷺ: فكرهت أن أجيبه بصريح الحق وأنا عامي فلا يقبله مني.

---

(١) في (ب): مصيبة.

(٢) في (ب): الإفرنجي.

فقلت: هذه المسألة يسأل عنها علماؤنا ﷺ هل فعلها النبي ﷺ أو لم يفعلها قط؟ فإن قالوا: لم يفعلها قط، سألناهم: هل فعلها أبو بكر ﷺ أو لم يفعلها قط؟ فإن قالوا: لم يفعلها قط، سألناهم: هل فعلها عمر ﷺ أو لم يفعلها قط؟ فإن قالوا: لم يفعلها قط، سألناهم: هل فعلها عثمان ﷺ أو لم يفعلها قط؟ فإن قالوا: لم يفعلها قط، سألناهم هل فعلها عليّ ﷺ أو لم يفعلها قط؟ فإن قالوا: لم يفعلها قط، سألناهم: هل فعلها أحد من الصحابة ﷺ أجمعين أو لم يفعلها أحد منهم قط؟ فإن قالوا: لم تثبت عن واحد منهم، سألناهم: هل فعلها التابعون أو لم يفعلها أحد منهم قط؟ فإن قالوا: لم تثبت عن واحد منهم، سألناهم: هل فعلها من أتباع التابعين أحد أو لم يفعلها قط؟ فإن قالوا: لم تثبت عن واحد منهم، علمنا أن ما لم يفعله هؤلاء القرون الثلاثة لا خير فيه.

قال ﷺ: وإنما ظهرت الحضرة في القرن الرابع، وسببها: إن أربعة أو خمسة من أولياء الله تعالى ومن المفتوح عليهم كان لهم أتباع وأصحاب، وكانوا ﷺ في بعض الأحيان ربما شاهدوا عباد الله من الملائكة وغيرهم يذكرون الله تعالى.

قال: والملائكة ـ عليهم الصلاة والسلام ـ منهم من يذكر الله بلسانه وبذاته كلها، فترى ذاته تتحرك يمينًا وشمالاً وتتحرك أمامًا وخلفًا، فكان الولي من هؤلاء الخمسة إذا شاهد ملكًا على هذه الحالة تعجبه حالته فتتأثر ذاته بالحالة التي يشاهدها من الملك، ثم تتكيف ذاته بحركة الملك، فتتحرك ذاته كما تتحرك ذات الملك، وتحكي ذاته ذات الملك، وهو لا شعور له بما تصدر منه؛ لغيبته في مشاهدة الحق ﷻ.

ولا شك في ضعف من هذه حالته وعدم قوته، فإذا رآه أتباعه يتحرك بتلك الحركة تبعوه، فهو يتحرك لحركة الملك وهم يتحركون لحركته ويتزيون بزيه الظاهر، ثم هلك الأشياخ الخمسة أهل الباطن والصدق ﷺ فاشتغل أهل الزي الظاهر بالحضرة، وزادوا في حركتها وجعلوا لها آلة وتكلفوا لها، وتوارثتها الأجيال جيلاً بعد جيل، فقد علمت أن سببها: ضعف من الأشياخ المذكورين أوجب لهم عدم ضبط ظواهرهم، وأهل القرون الثلاثة ﷺ لم تكن في أزمنتهم ولا سمعت عن أحد منهم، والله أعلم.

وسمعته ﷺ يقول في نظر البصيرة: إن فيه ثلاثمائة ألف جزء وستة وستين ألف جزء، جزء واحد منها في نظر العين والباقي من الأجزاء في ذات العارف الوارث الكامل، فينظر بذاته كما ينظر أحدنا بعينه، ولكن نظره بمجموع الأجزاء كلها.

قال: وهذا لا يكون إلا لرجل واحد؛ يعني به: الغوث الذي تحته الأقطاب السبعة.

فقال بعض الحاضرين وكنا بداره بمدينة [تطاون][1]، وكان لا يعرف مقام الشيخ ﷺ: إن سيدي عبد الوهاب الشعراني ذكر أنه اجتمع في الملكوت سيدي عبد القادر الجيلاني، وسيدي أحمد بن حسين الرفاعي، وسيدي إبراهيم الدسوقي ﷺ أجمعين، ووقعت لهم حكاية في ذلك العالم، فذكرها سيدي إبراهيم لبعض أصحابه، فقالوا: يا سيدي، من يشهد لك؟ وكان بمصر مع أصحابه، والشيخان الآخران بالعراق، فقال سيدي إبراهيم: ها هما يشهدان بذلك ـ يشير إلى الشيخين ـ [فحضرا في الحين وشهدا له][2] فقال الرجل: فهؤلاء ثلاثة وكلهم كمل.

فقال الشيخ ﷺ: تلك الحكاية يفعلها أضعف ما في الأولياء، ولقد رأيت وليًّا بلغ مقامًا عظيمًا، وهو أنه يشاهد المخلوقات الناطقة والصامتة، والوحوش والحشرات، والسماوات ونجومها، والأرضين وما فيها، وكرة العالم بأسرها تستمد منه، ويسمع أصواتها وكلامها في لحظة واحدة، ويمد كل واحد بما يحتاجه ويعطيه ما يصلحه من غير أن يشغله هذا عن هذا، بل أعلى العالم وأسفله بمنزلة من هو في حيز واحد عنده، ثم يرحم هذا الولي فينظر، فيرى مدده من غيره وهو النبي ﷺ، ويرى مدد النبي ﷺ من الحق ﷻ فيرى الكل منه تعالى.

قال: وسمعت هذا الولي يقول: إذا نظرت إلى كون المدد من غيري أجد نفسي كالضفدع والخلق كلهم أقوى مني وأقدر.

* **قلت:** وهذه صفة شيخنا ﷺ غوث الزمان والأقطاب السبعة تحته.

وقال لي ﷺ **مرة:** إني أرى السماوات السبع والأرضين السبع والعرش داخلة في وسط ذاتي، وكذا ما فوق العرش من السبعين حجابًا، وفي كل حجاب سبعون ألف عالم، وبين كل حجاب وحجاب سبعون ألف عام، وكل ذلك معمور بالملائكة الكرام، وكذا ما فوق الحجب السبعين من عالم الرّقّا ـ بتشديد الراء وتشديد القاف بعدها ـ فكل هؤلاء المخلوقات لا يقع في فكرهم شيء فضلاً عن جوارحهم إلا بإذن رجل، رحمه الله تعالى.

---

(١) في (ب): تطوان.

(٢) في (ب): فحضر أبو الحسن وشهد له.

* **قلت**: ولهذا الكلام شرح يعرفه أربابه، رزقنا الله رضاهم، وجعلنا من زمرتهم وحزبهم، آمين آمين آمين يا رب العالمين.

وأمّا قوله ﷺ: إن أصغر الأولياء يفعل تلك الحكاية، فقد صدق ﷺ في ذلك، فقد شاهدت من أخذ في بداية الفتح وأوائل الكشف يفعل مثل ذلك، مع كونه إلى الآن ما صح له إيمان الصوفية ﷺ أجمعين.

ـ **وسألته ﷺ** فقلت: وموروثه ﷺ له مائة ألف وأربعة وعشرون ألف ذات، فما باله لم يرثها الغوث كلها؟

فقال ﷺ: لا يطيق أحد ما يطيقه النبي ﷺ، ومعنى الوراثة في الغوث أنه ليس ثم ذات شربت من ذات النبي ﷺ مثل ذات الغوث ﷺ، والله أعلم.

obeikandl.com